جون هالدون

بيزنطة في حرب

1453 - 600

ترجمة وتعليق

د. فتحي عبد العزيز محمد



دار ناشري للنشر الإلكتروني

الكويت 2011

هذه ترجمة النسخة الإنجليزية من كتاب

Essential Histories

Byzantium at War AD 600-1453

John Haldon

NEW YORK AND LONDON Publisher: Routledge.

Place of Publication: New York.

Publication Year: 2003



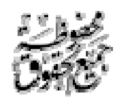
دار ناشري للنشر الإلكتروني
رقم التسجيل في المكتبة الوطنية الكويتية: ٢٠٠٨/٣٠٦
أول دار نشر ومكتبة إلكترونية عربية مجانية للقارئ العربي
www.nashiri.net

info@nashiri.net

الفهرسة أثناء النشر

٩٤٠,١ هالدون ، جون
بيزنطة في حرب (٦٠٠ - ١٤٥٣)/ تأليف جون هالدون ؛ ترجمة وتعليق فتحي عبد العزيز محمد .- ط ١.- الكويت: دار ناشري للنشر الإلكتروني ، ٢٠١١.
٩٠ ص
- الناشر: دار ناشري للنشر الإلكتروني (الكويت)
www.nashiri.net
١-العنوان ٢- أوربا - تاريخ - العصور الوسطى
٣-أوربا - تاريخ - (٦٠٠- ١٤٥٣) ٤-أوربا - تاريخ - الإمبراطورية البيزنطية

الطبعة الإلكترونية الأولى
الكويت ٢٠١١



Publisher:
Nashiri Non-profit E-Publishing House (Kuwait)
www.nashiri.net
info@nashiri.net

التجهيزات الفنية
دورية كان التاريخية
www.historicalkan.co.nr



جون هـــالدون



ترجمة وتعليق

د. فتحي عبد العزيز محمد

أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد

جامعة الباحة – المملكة العربية السعودية



دار ناشـــري للنشـــر الإلكترونـــي

Nashiri Non-profit E-Publishing House

الطبعة الإلكترونية الأولى

١٤٣٢هـ / ٢٠١١م

المحتويات



مقدمة المترجم

حظي الجيش البيزنطي باهتمام خاص من جانب الإمبراطورية البيزنطية، لما له من أهمية في الحفاظ علي تلك الإمبراطورية في مواجهة أعداء يحيطون بها من كل جانب، بالإضافة إلي ما تعرضت له من غزوات سببتها هجرات الشعوب البربرية من مواطنها الأصلية.

وكثيراً ما قام الأباطرة بمحاولات جادة لإصلاح الجيش، والنهوض به ليصبح قادراً في مواجهة التحديات التي فرضت عليه. وإذا كنا نتفق مع الرأي القائل بأن التاريخ البيزنطي يبدأ مع ظهور مدينة القسطنطينية التي أسسها قنسطنطين الأول، فإنه من الضروري أن يكون تتبع نشأة الجيش البيزنطي وتكوينه مقارباً لذلك التاريخ. والمدخل السليم يبدأ من حيث إصلاحات دقلديانوس العسكرية والتي لا يمكن أن نباعد بينها وبين إصلاحات قنسطنطين في المجال نفسه. ومعرفة المراحل التي مر بها الجيش من قوة أو ضعف، وبالتالي الإصلاحات التي أدخلت علي ذلك الجيش وما لحق به من تطور هجومي أو دفاعي، حتى يمكنه أداء دوره في الحفاظ علي تلك الإمبراطورية علي مدي ما يزيد عن إحدى عشر قرنا من الزمان، وعلي مدي جغرافي اتسعت مساحته أو تقلصت علي مر الأيام. بيد أن مؤلف الكتاب الذي بين أيدينا عمد إلي حصر الأمر علي الفترة التاريخية التي تبدأ من القرن السابع الميلادي وتنتهي مع نهاية الإمبراطورية البيزنطية بدخول السلطان العثماني مدينة القسطنطينية عام ١٤٥٣ التي كانت عاصية علي الفتح الإسلامي أمداً طويلاً. ولعل البدء من القرن السابع ـ وهو ما قام به المؤلف ـ يعكس صورة للإمبراطورية الرومانية الشرقية وقد صبغت بصبغة بيزنطية.

د.فتحي عبد العزيز محمد

أستاذ تاريخ العصور الوسطي المساعد

جامعة الباحة – السعودية

الباحة – المملكة العربية السعودية

مايو ٢٠١٠

توطئة

لم تعرف الإمبراطورية البيزنطية في زمنها بهذا الاسم، وكـــان مصطلح بيزنطي مستخدما بالفعل للدلالة علي قاطني القسطنطينية فقط، في الوقت الـذي أشـار فيـه رعايـا الإمبراطـور في القسطنطينية إلي أنفسهم علي أنهم رومان Rohomaioi ، لأنهم لطالما اعتـبروا القسـطنطينية، مدينة قنسطنطين الأول ـ أول حاكم مسيحي للإمبراطورية الرومانية ـ ليست سوي عاصـمة لذات الإمبراطورية بعد أن فقدت روما مكانتها[1]، وأن مـا تم هـو ظهـور إمبراطوريـة رومانيـة مسيحية حملت علي عاتقها تقاليد الحضارة الرومانية، وتميزت بمجتمع متحضـر يعتنـق المسـيحية الأرثوذكسية التي كانت بمثابة العقيدة الهادية، والقوة الروحية التي حمت العالم. كما حظيت بعون الرب ودعمه المتصل. وتعني الأرثوذكسية حرفياً "الإيمان القويم". وكان ذلك الإيمـان ضـرورياً لبقاء الإمبراطورية .ولقد صبغ كل ذلك الإمبراطورية الرومانية الشرقية بصبغة خاصة. وهو مـا يوضح وجهة نظر المؤرخين المحدثين ما المقصود بمصطلح بيزنطي.

وعبر تاريخها الطويل، منذ أواخر القرن الخامس عندما صار الجزء الغربي من الإمبراطوريـة نهبا لممالك بربرية متعاقبة، وحتى سقوط آخر إمبراطـور شـرقي في قتـال (قنسـطنطين الحـادي عشر ١٤٤٨ـ ١٤٥٣م)، كانت الإمبراطورية في غالب الأحوال في حرب دائمة. حتم عليها ذلك موقعها الاستراتيجي في آسيا الصغرى وجنوب البلقان. لقد كانت في مواجهة تحد دائم من قبـل جيرانها صغرت أو كبرت قوتهم. ففي البداية وفي منطقـة الشـرق كـان الفـرس، ومـن بعـدهم القوي الإسلامية المختلفة التي ظهرت في المنطقة.

أما في الشمال، فكان التهديد من قبل السـلاف والآفـار (شـعب تركـي)[2]، وذلـك خـلال القرنين السادس والسابع، ثم البلغار من نهاية القرن السابع وحتى بدايات القرن الحادي عشـر. وفي أخريات القرن الثاني عشر كان المجريون، ومن بعدهم الصرب، وأخيراً الأتـراك العثمـانيون بعد انتصارهم في اليونان وجنوب البلقان.

١- تم افتتاح القسطنطينية كعاصمة جديدة للإمبراطورية في ١١مايو سنة ٣٣٠م ، وتطلب تشييدها أموالا طائلة كي تنافس روما. واستغرق سنوات سبع بدءا من ٣٢٤ إلي ٣٣٠م ، للمزيد أنظر : محمد مؤنس عوض : الإمبراطورية البيزنطية ، دراسة في تاريخ الأسر الحاكمة ، القاهرة ، دار عين ٢٠٠٧، ص ١٣٩.

٢ – يرجع أصل الآفار إلي الترك الأويغور الذين ينحدرون من سلالة الهون ، انظر : اسمـت غنـيم : دراسـات في تـاريخ العصور الوسطي ، الآفار، الإسكندرية ١٩٩٤ ، ص ١٥.

أما في الغرب، فإن العلاقات مع القوي الناشئة هناك علي أنقاض الإمبراطورية الرومانية في قسمها الغربي كانت معقدة ومتأزمة، ناهيك عن التنافس السياسي بين البابوية وبطريركية القسطنطينية حيث كانت الكنيستان الكبيرتان أنطاكية والإسكندرية ، وكذلك بيت المقدس بلا حول ولا قوة بعد الفتح الإسلامي للعالم المسيحي في القرن السابع[٣].

وأيا ما كان الأمر ، فقد امتد العمر ببيزنطة طويلا . ويرجع ذلك في جانب منه إلي كونها جيدة التنظيم داخليا ، مع وجود نظام مالي وحربي جيدان إلي حد ما ، حيث تمتد جذورهما إلي العهد الروماني ، واستمرا حتى القرن الحادي عشر . بيد أن نمو ثروات جيران بيزنطة في الغرب والشمال واستقرارهم سياسيا جعلهم قادرين علي تحدي الإمبراطورية ، والتنافس علي الصدارة . وأدي ذلك إلي تراجع مكانة بيزنطة مع بواكير القرن الثالث عشر إلي المرتبة الثانية ، إن لم تكن الثالثة ، لتصبح تابعة لسياسات الغرب ، ومصالح المدن التجارية مثل البندقية ، وبيزا ، وجنوة وغيرها من الجمهوريات التجارية .

الأراضي البيزنطية:

كانت الإمبراطورية البيزنطية أو الإمبراطورية الرومانية الشرقية العصور الوسطي ، تنحصر في معظم الأحيان فيما بين جنوب البلقان وآسيا الصغرى ، بالكاد فيما يعرف حاليا بتركيا واليونان ، إلا أنها صارت أكثر اتساعا في منتصف القرن السادس ، بعد نجاح الإمبراطور جستنيان في غزوه للغرب . فقد شملت عندئذ المناطق الساحلية الشمالية لإفريقيا من الأطلنطي وحتى مصر ، بالإضافة إلي جنوب شرق أسبانيا ، وإيطاليا والبلقان صعودا إلي الدانوب . ولقد تقلصت تلك المساحة في أواخر القرن السادس ، حيث صارت إيطاليا مرتعا لتنافس اللمبارد ، وفي أسبانيا قام القوط الغربيون بطرد رجال الإدارة الإمبراطورية منها . بينما في الشرق الأدنى كانت سوريا ، والعراق، وضفة نهر الأردن ، قد صاروا للتو في قبضة المسلمين مع بدايات سنة ٦٤٠، وتبعهم شمال إفريقيا مع نهاية سنة ٦٩٠م . لذا فإنه في غضون نصف قرن من الحروب فقدت الإمبراطورية بعضا من أقاليمها الغنية ، وكثيرا من عائدات كانت تدعم الحكومة والنخبة الحاكمة ، وتوفر احتياجات الجيش من الجند.

٣ – حدث علي إثر الفتح الإسلامي لأراضي الإمبراطورية البيزنطية أن خرجت بطريركيتا الإسكندرية وأنطاكية ، وكنيسة بيت المقدس عن دائرة النفوذ البيزنطي ، وأصبح بطريرك القسطنطينية الرأس الديني الوحيد بالإمبراطورية ، وأخذت مطامحه في الازدياد ، وعمل علي تقوية نفوذه الأمر الذي أدي إلي إثارة البابا في روما الذي كان يعمل بدوره لفرض سيادته علي الأمم المسيحية قاطبة . أنظر ، عمر كمال توفيق : تاريخ الدولة البيزنطية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ٢٠٠٠، ص ١٠٨ـ ١٠٩.

ويمكن القول ، أن كثيرا مما تبقي للإمبراطورية من ممتلكات كانت في معظمها جبالا ، أو أرض جرداء قاحلة ، بينما كانت الأراضي القابلة للاستغلال محدودة المساحة . غير أن نظام الإدارة المالية الكفء (بمقاييس العصور الوسطي) ، ونظام جمع الضرائب ، ومصادر الثروة الزراعية ، والاعتماد الكبير علي شبكة دبلوماسية متكاملة ، ونظام المبعوثين والجواسيس والرغبة في تأليب الجيران والأعداء بعضهم ضد بعض ، ودفع بعض المال لوقف عدوان كل ذلك ساهم في مد أجل الدولة . وكانت تلك المعايير ضرورية لبقائها .

وعلي الرغم من حصانة القسطنطينية وموقعها الاستراتيجي الذي يمكنها من صد أي هجوم ، فإن الإمبراطورية كانت محاطة بالأعداء من كل جانب ، سواء كانوا أعداء بالفعل ، أم محتمل عداؤهم . وكانت ـ بصفة عامة ـ عبر تاريخها الطويل في حرب علي جبهتين إن لم يكن ثلاثة . وقد عبر عن ذلك الموقف بشكل جيد في القرن العاشر ليتو براند من كريمونا " إن الإمبراطورية محاطة ببرابرة متوحشون ، من مجر ، وبشناق ، وخزر ، وروس ... وغيرهم " .

وتجدر الإشارة إلي أن آسيا ألصغري كانت بؤرة لكثير من النشاطات الحربية للإمبراطورية منذ القرن السابع حتى القرن الثالث عشر . وهي ذات مناخ متنوع ، حيث توجد ثلاثة مناطق مناخية مختلفة . كذلك تنوعت مظاهر السطح ، فتضم آسيا الصغرى سهولا ساحلية ، وهضاب وسطي بالإضافة إلي الجبال الفاصلة بينهما. وتتميز الهضبة الوسطي بمناخ حار جاف صيفا ، شديد البرودة شتاء . وفيما عدا مجاري الأنهار بالهضبة فإن النشاط الاقتصادي اعتمد علي الرعي (الماعز والأغنام والخيول) . أما المناطق الساحلية فقد تركز فيها معظم الإنتاج الزراعي ، وارتفعت فيها الكثافة السكانية ، وقد تمتعت بمناخ بحر متوسط ، وكانت من أهم مصادر دخل الحكومة . ويلاحظ أن معظم البلدان والمدن الساحلية كانت متشابهة في نمطها وكثافة سكانها ، بينما احتوت المناطق الجبلية والهضاب مستوطنات متناثرة . ويمكن تطبيق ذلك علي مناطق البلقان أيضا . وفي كلتا الحالتين فإن الجغرافيا أثرت علي نظام الطرق والاتصالات ، مما فرض علي الدولة أن تضع ذلك في حسبانها عند وضع إستراتيجيتها أو خوض الحروب ، والاهتمام بالإمدادات من قوي بشرية ، وغذاء ، ومأوي ، والدواب ، والأسلحة ، وكيفية تحريك ذلك كله . كذلك لعبت الجغرافيا دورا مؤثرا في مقدرة الإمبراطورية علي البقاء في ظل ظروف إستراتيجية صعبة وجدت فيها .

ولقد واجهت الجيوش العابرة لآسيا أو المعسكرة بها ، صغرت أم كبرت ، بيزنطية أم معادية، الكثير من المشاكل . ومنها بصفة خاصة الطرق الطويلة الممتدة ، وقلة المياه ، والبلدان المكشوفة ، والجبال الوعرة التي تفصل الساحل عن الهضاب الداخلية.

وبقيت الطرق التي أقيمت في الفترة الهللينستية والرومانية مستخدمة إلـي حـد مـا في الحقبـة البيزنطية . غير أن الإمبراطورية قامت في القرن السادس بتطوير عدة طـرق حربيـة ، بالإضـافة إلي سلسلة من الحصون والقواعد العسكرية . حيث كانت تلك الطرق مداخل ومخارج للقوات العربية . ومن المعروف أن الاستراتيجيات في حاجة إلي تغيير ، وكذلك الطرق ، حيـث تـدخل طرق في الخدمة وتخرج أخري .

أما البلقان ، فتمثل تضاريسها سطحا مجزئا ، كثير النتوءات ، ينحدر باتسـاع إلـي نطـاقين ، أولاهما السهول الساحلية وأودية الأنهار وهي سهول خصبة . أما النطـاق الثـاني فهـو جبلـي يهيمن علي ثلثي مساحة البلقان . حيث تمتـد في الغـرب جبـال الألـب الدينارية مـن الشـمال الشرقي إلي الجنوب الغربي . حيث تلتقي بالبندس فيسيطران معا علي غرب ووسط اليونـان ، وسلسلة البلقان ذاتها تمتد من نهر مورافا حتى ساحل البحر الأسود مكونة مع جبـال الـرووب قوسا عبر مقدونيا حتى سهول تراقيا . وقد أدت التضاريس المتنوعة العازلة إلي ظهـور كيانـات سياسية منفصلة علي المرتفعات التي تنحدر باتجاه النهر ثم المناطق الساحلية .

ومنذ الأزمنة القديمة خدمت عدة طرق رئيسية في الوصول إلي داخل إقليم البلقـان ، أو في المرور عبرها من الشمال إلي الجنوب ، أو من الشرق إلي الغرب . كما امتازت البلقان بممرات مسـيطرة ضـيقة نسـبيا ، لكنهـا في الغالـب مرتفعـة . وكـان ذلـك مثاليـا لإسـتراتيجية حـرب العصابات، وظروف الحملات الحربية . وإن كان يصعب الوصول إلي بعض المناطق شتاء .

ويمكن القول ، إن هيكل الاتصالات ، وتأثير النفوذ البيزنطي السياسي تحددا في ضوء طبيعـة المنطقة . لأنه لم تكن هنالك نقاط نشاط محددة واضحة باستثناء تسالونيك ، والقسطنطينية اللتان تقعان علي حافة تلك التضاريس الوعرة . لقد أثرت الجغرافيا علي استخدام الأرض في البلقان كما في آسـيا الصـغرى . وسـادت الأحـراج والغابـات الأراضـي المرتفعـة والجبـال . وكانـت الأعشاب والمراعي الجافة تناسب الحياة الرعوية فقط . بينما انحصر النشاط الزراعي في السهول وأودية الأنهار والسهول الساحلية في كل من تساليا ومقدونيا والدانوب . كما لعب البحر دورا هاما ، حيث أحاط بشبه جزيرة البلقان بطول السـواحل الشـمالية ، وعمـل ولا يـزال كوسـيلة اتصال فعالة للربط بين السواحل ، ومناطق عدة بعيدة . بينمـا عـاب السـواحل الجنوبيـة أنهـا كانت مفتوحة أمام أي غزو .

وأيا ما كان الأمر ، فإن شبكة الطرق الحربية التي أنشئ معظمها فيما بين أواخر القرن الثاني قبل الميلاد ومنتصف القرن الثاني الميلادي، كانت أحد العوامل الـتي جعلـت الجـيش البيزنطـي أكثر كفاءة ونجاحا . كما سهلت شبكة الطرق تلك حركة التجارة والمدنيين ، وحركة المعلومـات . غير أن تلك الطرق أخذت في التدهور مع نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس الميلاديين ،

حيث تأثرت بالتغيرات الاقتصادية والاجتماعية ، تلك التغيرات التي ألقت بظلالها علي الإدارات المحلية ، ومجالس البلديات . ونتيجة لذلك ، وبعد أن أضحت الطرق غير ملائمة لسير المركبات ذات العجلات بدأ الاعتماد علي دواب الحمل .

ولجأت الإدارة إلي فرض بعض الالتزامات علي المجتمعات المحلية ، وذلك فيما بعد القرن السادس . كما تم دمج كل من البريد السريع ـ المعتمد علي ظهور الدواب والعربات الخفيفة التي تجرها الخيول السريعة ـ مع البريد البطيء الذي اعتمد علي العربات الثقيلة التي تجرها الثيران . وتم ذلك الدمج تقريبا منذ القرن السادس أو السابع الميلادي ، وظل معمولا به حتى السنوات الأخيرة من تاريخ الإمبراطورية . والواقع أن شبكة الطرق الإمبراطورية في البلقان والأناضول لم تكن شاملة كما يفترض ، ولكنها ظلت فاعلة . وتبين تكاليف صيانة الطرق ومشاكل متابعتها ، أن كثيرا منها كان مجرد مسالك ضيقة تصلح للنقل علي ظهور الدواب ، وأنها كانت ممهدة أو مرصوفة بالقرب من البلدات والغابات فقط .

وفيما يتعلق بالنقل البحري ، فغالبا ما كان أسرع وأرخص خاصة في حالات النقل لمسافات بعيدة ، وبكميات كبيرة من البضائع كالحبوب علي سبيل المثال . لقد كانت تكلفة إطعام ثيران الجر وسائقيها تضاف إلي سعر البضائع المنقولة . وكانت أسعار تلك البضائع عموما فوق قدرة الناس العاديين من رعايا الإمبراطورية . وكانت الحكومة والجيش وإلي حد ما الكنيسة ، وبعض الأفراد الموسرين هم من لهم القدرة علي شراء السلع المنقولة بهذه الطريقة . وبالمقارنة فإن النقل البحري كان فعالا من حيث رخص التكلفة ، فيمكن نقل كميات كبيرة من السلع في مركب واحد ، يعمل عليها فريق صغير العدد . لذا حدث استثمار في هذا المجال من وسائل النقل .

كان ذلك هو العالم المحسوس للإمبراطورية الرومانية المتأخرة ، والإمبراطورية الرومانية الشرقية أو الإمبراطورية البيزنطية . وهو السياق الذي في إطاره يمكن فهم التطور السياسي والدبلوماسي والثقافي للإمبراطورية . ولا تمثل الجغرافيا والسياق الطبيعي ـ كل العوامل ، بل هناك الثقافة السائدة أي العالم الفكري لبيزنطة . ولقد كانت المعلومات ، وسرعة الاتصال ، وحركة الناس هامة ، فعن طريقها تتحدد فاعلية الجيوش ، والمصادر المتاحة التي تحتاجها للدعم في ميادين القتال .

ولا يغيب عن البال ، أن الجغرافيا تؤثر علي كيفية عمل الحكومة : كمية الثروة الزراعية التي يمكن أن توفرها لأغراض معينة ، التوزيع ، معدل السكان والاستهلاك ، والدواب المتوفرة ..الخ . إن العوامل الجغرافية كانت ضرورية بالطبع فيما يتعلق بأمور الحروب والتنظيم الاستراتيجي للإمبراطورية.

نظرة سريعة علي التاريخ البيزنطي عند نهاية القرن الخامـــس:

صار الجزء الغربي من الإمبراطورية الرومانية رقاع من ممالك بربرية متعاقبة[٤] . بينما واصل الأباطرة في القسطنطينية اعتبار تلك المناطق جزءا من ملكهم . وعلي أية حال ، فإنهم في بعض الأحيان اعتبروا الملوك فيها علي أنهم ممثليهم الشرعيين ، يديرون المصالح الرومانية في الأقاليم الغربية بالنيابة عنهم إلي أن تتمكن القسطنطينية من إعادة فرض تواجدها الإداري والعسكري . وكان ذلك هو الحال ـ بشكل واضح ـ مع زعيم القوط الشرقيين ثيودريك . والذي أسس دولة قوية في إيطاليا علي الرغم من أنه كان يحكم باسم الإمبراطور .

أما كلوفيس [٥] ـ زعيم الفرنجة الساليون في شمال الغال ـ فقد تبني الديانة المسيحية علي المذهب الأرثوذكسي ، وذلك في السنوات الأخيرة من القرن الخامس كي يحظي بالاعتراف والدعم البابوي والإمبراطوري لحكمه ، حيث زعم علي الأقل اسميا ، أنه ممثل الحكم الروماني.

أيا ما كان الأمر ، فإن الأباطرة لم يعتبروا أن الغرب قد ضاع ، ولكنه كان خارج السيطرة مؤقتا . واستغل الإمبراطور جستنيان ٥٢٧ ـ ٥٦٥ذلك كمبرر لشن سلسلة من الحروب بهدف استرجاع النفوذ الروماني[٦] ـ كما كان في السابق ـ علي شمال إفريقيا من الوندال سنة٥٣٤ ، وإيطاليا من القوط الشرقيين سنة ٥٥٢ . غير أن الخطة كانت أكثر طموحا من أن

---

٤ - لا يعد لفظ بربرية هنا مرادفا للفظ همجية ، وإنما يشير إلي مرحلة من التنظيم الاجتماعي القبلي الذي لم يرق بعد إلي مرحلة الاستقرار المدني وإقامة الدول ذات الحدود الثابتة . والواقع أن الشعوب البربرية التي أحاطت بالدولة الرومانية لم تفتقر إلي أسس ودعائم حضارية بل تمتعت بتقاليد حضارية خاصة ، وكانت تلك الشعوب كثيرة ومتنوعة ، وأقربها إلي الإمبراطورية العناصر الجرمانية التي بدأ تهديدها للإمبراطورية يتزايد منذ عهد الإمبراطور ماركوس أورليوس (١٦١ـ ١٨٠) وقد تزايد خطرها مع العام ٣٧٥ واستمر حتى العام ٥٦٨ . وأمكن لكثير منهم في تلك الفترة اجتياح أقاليم رومانية هامة وتأسيس ممالك جديدة داخلها ، مما غير وجه العالم القديم تغييرا تاما . للمزيد أنظر، سعيد عاشور تاريخ أوربا العصور الوسطي ، ج ١ ، القاهرة ١٩٧٦،ص ٥٥ ـ ٦٥ .

٥ - يعتبر كلوفيس (٤٨٦ـ٥١١) المؤسس الحقيقي لدولة الفرنجة البحريين ، وقد ظل يمثل آخر بقايا الإدارة الرومانية في حوض السين علي الرغم من سقوط الإمبراطورية في الغرب قبل ذلك بعشر سنوات واستطاع أن يمد نفوذ الفرنجة علي الجهات الشمالية من غاليا ، سعيد عاشور : تاريخ أوربا العصور الوسطي ،ج ١ ، ص ٧٩.

وقد ظلت الدولة قوية في عهده وبما أن مملكة الفرنجة كانت تعد ملكا شخصيا لكلوفيس علي الأقل من وجهة نظره فأن التقاليد كانت تدعوا إلي تقسيمها بين أبنائه وبذا تحولت مملكة الفرنجة عقب موت كلوفيس التي هي أكبر الممالك قوة واكثرها اتساعا إلي أربع ممالك صغيرة .

٦ - كان جستنيان ابن أخت الإمبراطور جستين ، عمل ضابطا صغيرا في أحدي وحدات الحرس الإمبراطوري Candidati ، وكان يدعي بطرس سباتيوس Petrus Sabbatius ، ورقي بشكل سريع ، وتم تبنيه وعرف بجستنيان منذئذ وقبل أن يموت جستين سنة ٥٢٧ اتخذ جستنيان شريكا لذا انتقلت إليه السلطة في يسر. أنظر ، Adrian Goldsworthy, How Rome Fell, U.S.A., 2009, p.388.

تهيئ مناخا مناسبا لنجاح دائم . وإن كان الإمبراطور قريب جدا من تحقيق أهدافه ، إلا أن المشاكل التي أعقبت وفاته أظهرت خطأ سياساته.

كما أن الحرب مع الإمبراطورية الفارسية في الشرق تعني استهلاك الموارد إلي أقصي درجة، في الوقت الذي لا يوجد فيه ما يكفي من الجند للعمل في كل الجبهات . لقد ترك جستنيان في سنة ٥٦٥ إمبراطورية مترامية الأطراف ، ولكنها كانت ـ ماليا وعسكريا ـ في وضع خطير . وكان علي خلفائه مواجهة حقائق منها التعامل مع أعداء جدد إلي جانب نقص السيولة المالية ، والسخط الداخلي بسبب ارتفاع الضرائب ، والمطالب المستمرة من قبل الجند ، وضرورات تمويلهم .

ولقد تجددت الحرب الفارسية ، بينما عبر اللمبارد في سنة ٥٦٨ من موطنهم بطول غرب الدانوب ، وإقليم درافا إلي إيطاليا في سعيهم للهرب من اقتراب الآفار وهم بدو أتراك ، أسسوا إمبراطورية واسعة في نطاق الاستبس . وسرعان ما اخترق اللمبارد المواقع الدفاعية الرومانية في شمال شبه الجزيرة مؤسسين عددا من الإمارات المستقلة في الوسط والجنوب . بينما زرع الآفار أنفسهم في شمال إقليم البلقان في تحد سافر لسلطة الإمبراطورية .

ومن الجدير بالذكر ، أن الإمبراطورية أمكنها أن تحدث نوعا من التوازن في الشرق وبطول الدانوب ، وذلك فيما بين منتصف سنة٥٧٠ وحتى نهاية عهد الإمبراطور موريس (٥٨٢-٦٠٢) . وتم خلع الإمبراطور موريس سنة ٦٠٢ عقب تمرد قوات الدانوب ، وارتقي العرش القائد فوقاس . واشتهر فوقاس في المصادر البيزنطية المتأخرة بأنه طاغية . واستمر في الحكم إلي أن خلع سنة ٦١٠، وذلك باستيلاء هرقل علي العرش . وهرقل هو أبن للحاكم العسكري لإفريقيا ، وتوج إمبراطورا ، وامتد حكمه حتى سنة ٦٤١ . غير أن الإمبراطورية لم تكن قادرة علي التمسك بدفاعاتها في مواجهة الضغط الخارجي ، ففي خلال سنوات قليلة اجتاح الآفار والسلاف كثيرا من أراضي البلقان . بينما احتل الفرس سوريا ومصر ، وبسطوا عليها نفوذهم وحكمهم ، فيما بين سنتي ٦١٤ – ٦١٨ ، وواصلو الزحف في آسيا الصغرى . وتركت إيطاليا لمقتسميها ، وأضحت أكثر انفصالا.   وعلي الرغم من الحصار الكبير للقسطنطينية من قبل الفرس وجيش الآفاروسلاف سنة ٦٢٦ ، فإن هرقل برهن علي مقدرة حربية عالية، حيث دمر الجيوش الفارسية في الشرق تماما . وأعاد الموقف إلي ما كان عليه في نهاية عهد موريس . وبدا أن السيادة علي المناطق الرومانية قد تأكدت . وإذ كان الدانوب خط الحدود ، فإن البلقان لم تبق تحت السلطة الإمبراطورية ، وإنما كان يحدث ذلك فقط عند ظهور الجيش في المنطقة . ومهما يكن من أمر فإن الدولة كانت تعاني من وضع مالي سيئ بعد أن استنفذت الحروب الطويلة كل مواردها.

وفيما يتعلق بالمسلمين ، فالمعروف أن الإسلام ظهر في شمال شبه الجزيرة العربية ، حيث تعايشت أشكال شتي من العقائد : المسيحية ، واليهودية ، وعقائد وثنية ، وبصفة خاصة جماعات مكة والمدينة الأكثر سفرا للتجارة والعمل بالقوافل . وكان الرسول صلي الله عليه وسلم تاجرا محترما معروفا ، ورافق قوافل التجارة إلي سوريا الرومانية مرات عديدة . وكانت سوريا وفلسطين موطنا للعرب الذين يعملون بالزراعة والرعي ، وأيضا جنود مرتزقة يخدمون الإمبراطورية كعازل من خطر الفرس.

واجه الرسول ﷺ مقاومة من عشيرته لما جاء به من دين خاتم . غير أنه فيما بين سنتي ٦٢٨ـ ٦٢٩م كانت سلطته قد شملت أغلب شبه الجزيرة العربية . وبدأ التفكير في مستقبل وإدارة المجتمع الإسلامي الجديد . وبوفاته صلي الله عليه وسلم (٦٣٢) دارت فترة قصيرة من الحروب شنها خلفاؤه من أجل تأكيد سلطة الإسلام . وكانت الفتوحات في المناطق الفارسية والرومية في جانب منها استجابة لمطالب سياسية ناتجة عن الصراع الداخلي.

ونتيجة اتحاد عدة عوامل منها عدم الكفاءة والفتور وسخط الجند ، وإجراءات الدفاع المتدنية، خسرت الإمبراطورية في هزائم مروعة سوريا ومصر وأرض الجزيرة ، وذلك في غضون عشر سنوات . وبذا تقلصت مساحة الإمبراطورية في سنة ٦٤٢ عما كانت عليه من قبل . كما دمرت الإمبراطورية الفارسية تماما (٦٥٠) لتولد الإمبراطورية العربية الإسلامية.

ويمكن القول ، أن الهزائم المتتالية ، وتناقص المساحة الناتج عن التوسع الإسلامي في الشرق منذ سنة ٦٤٠ من ناحية ، ووصول البلغار وإقامتهم دولة ثابتة في البلقان منذ سنة ٦٨٠ من ناحية أخري[٧] ، كل ذلك أدي إلي تغيير جذري في الأوضاع السياسية لوجود الدولة الرومانية الشرقية.

كانت المنطقة من البلقان إلي الدانوب ضمن ما تزعمه الإمبراطورية من أملاك ، وعندما تظهر الجيوش الإمبراطورية هناك ، فإن القائمين عليها من السلاف ـ قادة وزعماء ـ يبدون اعترافا بالسلطة الإمبراطورية . ويستمر ذلك ما استمر التواجد العسكري بالمنطقة . أما البلغار فكانوا عنصرا جديدا سرعان ما مكنهم تنظيمهم الحربي البدوي ، وتقنيتهم المستخدمة من فرض هيمنة سياسية علي جنوب دلتا الدانوب ، وقام خاناتهم بتوسيع ومد سلطانهم بشكل سريع حتى صاروا يمثلون مع نهاية القرن السابع تهديدا رئيسيا للمزاعم الإمبراطورية في الإقليم.

---

٧ - البلغار شعوب بدوية من منطقة السهوب ، وحدث أن صاروا جماعة مسيطرة في المناطق الوسطي شمال الدانوب ، وقد حكمهم في السابق آتيلا وبينهم كثير من الهون الذين بقوا بعد أن تفكك شملهم وانهار اتحادهم القبلي ، وأبقاهم تحالفهم مع سترابوا القوطي الشرقي تحت نظره في تراقيا وبدأ البلغار في غزو العمق الرومي بشكل لم يحدث من قبل آتيلا نفسه . انظر: Stephen Williams، The Rome that Did Not Fall، p.199

ويمكننا القول أن تلك الأحداث قادت بالضرورة إلي تحول الشكل الإداري للدولـة ، ونجـم عن ذلك ، جيش اعتمد بشكل كبير علي المبادئ الدفاعية، لأن الحرب الهجومية صارت نـادرة حتى منتصف القرن الثامن . وعملت الحكومة علي تلافيها ، وتجنب المواجهة مع قوات معاديـة قدر الإمكان . وفي الواقع فإن الجيوش الميدانية للإمبراطوريـة الرومانيـة المتـأخرة صـارت فرقـا محلية ، علي الرغم مما أبداه القادة من تمسك بالجند النظاميون دوما في تلك المناطق.

وحدث تطور في مجال حرب العصابات ، وفيها يسمح لقوات العدو باختراق الحـدود ، ثـم تقطع صلتها بقواعدها ، ويشن هجوم سريع إما تهزم فيه أو تجبر علي العودة من حيـث أتـت . كما اتبع الضباط البيزنطيون سياسة الأرض المحترقة scorched earth في كثير من الأقـاليم . ويتم حث السكان المحليون علي القيام بأعمال الحراسة والمراقبة ، حتى يمكنهم جمـع دوابهـم ، وكل ممتلكاتهم الأخـرى في وقـت سـريع واللجـوء إلـي الحصـون الجبليـة ، وبالتـالي حرمـان وحدات العدو من الحصول علي غنائم أو أسلاب.

ومما تجب الإشارة إليه ، أن أباطرة قلائل شنوا حملات هجومية فيما بين سـنتي ٦٦٠ – ٧٣، وكانت تلك الحملات تهدف عموما إلي إحباط هجوما عاما للعدو علي المنـاطق الإمبراطوريـة في آسيا الصـغرى ، أو كانت ذات طبيعة عقابية قائمة علي دافع إيديولوجي للهجوم الانتقـامي علي أهداف عامة للعدو ، وبدون أية قيمة استراتيجيه ثابتة.

وعلي الرغم من تحقيق بعض انتصارات يعتد بها ، فإن كثيرا مـن تلـك الحمـلات فشـلت ، ونجم عنها هزائم ، وخسارة للرجال والعتاد . ولم يكن الفرق كبيرا بين الأسـلحة المختلفـة مـن حيث مستوي التكتيك كما في الخيالة الخفيفة والثقيلة أو المشاة ، أو حملـة الأقـواس والسـهام . وكان كل ذلك مرتبطا بالنخبة.

ويبدو أن الجيوش البيزنطية والعربية كانت متشابهة إلي حـد كـبير . لكـن التـوازن في ميـزان القوي بدأ فقط منذ سنة ٧٣٠ فصاعدا . وذلك خلال عهد الإمبراطور ليو الثالث ٧١٧- ٧٤١ وهو إمبراطور من أصل عسـكري ، اعتلـي العـرش سـنة ٧١٧ . وتواصـلت الجهـود لتحقيـق التوازن بصفة خاصة في عهد ابنه قنسطنطين الخامس ٧٤١ – ٧٧٥ وهو إمبراطور محارب ، قـام بعدة إصلاحات إدارية في الجيش كما أسس جيشـا ميـدانيا مـن الصـفوة في القسـطنطينية سـنة ٧٦٠، مما أدي إلي بداية تغيير للموقف ، حيث تمكن البيزنطيون من تحقيق التوازن سـنة ٨٠٠ ، في الوقت الذي شهد استقرارا داخليا ، إلي جانب تعافي الاقتصـاد في أخريـات القـرن الثـامن. بينما دب النزاع في صفوف أعداء الإمبراطورية.

وعلي الرغم من الهزائم الكبرى ـ علي سبيل المثال ما أعقب الهجوم البلغاري المفاجيء سنة ٨١١ من القضاء علي القوة البيزنطية ، وموت الإمبراطور نقفور الأول Nikephoros 1 في المعركة ـ إلي جانب وضع السياسة الدولية السيئ، فإن البيزنطيين كانوا أقدر علي بدء سياسة أكثر عدوانية فيما يتعلق بكل من القوي الإسلامية في الشرق، والبلغار في الشمال. وفيما يختص بالأخيرة، فقد استخدمت بيزنطة أسلحة ثلاثة. الجهود الدبلوماسية المكثفة، ونشاطات الإرساليات الدينية، إلي جانب التهديدات العسكرية .

وفي أوائل القرن العاشر، وبينما الخلافة العباسية تفقد قوتها بسبب المنازعات الداخلية، بدأ البيزنطيون يحققون أسبقية واضحة باستغلال الموقف. فعلي الرغم من قوة وأحيانا نجاح قادة الحرب المسلمين ـ مثل أمراء حلب في سنة ٩٤٠ و ٩٥٠ ـ فإن البيزنطيين قاموا بشن سلسلة ناجحة من حروب استردادية لمناطق كبيرة في شمال آسيا والعراق، والقضاء علي الإمبراطورية البلغارية الثانية. وبدايات المحاولات لاسترداد صقلية وجنوب إيطاليا . وبوفاة الإمبراطور المحارب باسيل الثاني " سفاح البلغار " (٩٧٦ـ ١٠٢٥) في سنة ١٠٢٥ كانت الإمبراطورية قد عادت إلي الصدارة السياسية، وقوتها الحربية في شرق المتوسط مرة أخري. ولم يكن لها من منافس سوي الخلافة الفاطمية في مصر والشام.

وكان لتطوير الحرب الهجومية منذ القرن التاسع أثره الكبير علي تنظيم الجيوش. بيد أن قوات الأقاليم صارت أقل ملائمة لمثل تلك الحرب ، لأنهم صاروا مرتبطين بأقاليمهم والهجمات الموسمية، والتي يحددها العرب والبلغار . لقد طورت القوات ـ إلي حد ما ـ برعاية الدولة لنخبة اجتماعية جديدة من القادة العسكريين الذين كانوا أيضا من كبار ملاك الأراضي. ومع منتصف القرن الحادي عشر ، كان قسما كبيرا من الجيش عبارة عن مرتزقة من الأهليين إلي جانب النورمان والروس والترك والمرتزقة الفرنجة.

ويبدو أن النجاح الذي تحقق فيما بين سنتي ٩٠٠ و ١٠٣٠ كان معتمدا علي التنظيم الفعال، والموارد الجيدة بشكل أفضل مما كان عليه الحال في الفترة السابقة. كما لعبت الأخلاق، والأيدولوجيا دورًا فاعلاً في هذا الصدد. بينما كان لارتفاع مستوي التكتيك البيزنطي للجيوش الميدانية دوره المميز ، إلي جانب تنوع التشكيلات المألوفة للجيش منذ الفترة الرومانية المتأخرة ـ والتي تلاشت مع أزمات القرنين السابع والثامن ـ وقد عادت تلك التشكيلات للظهور مرة أخري. ولاحظ المعلقون العرب فعالية الخيالة البيزنطية الثقيلة ، والتي وظفت لتكون ساحقة في الحروب البيزنطية ضد كل من المسلمين والأعداء الشماليين كالبلغار والروس من كييف.

علي أية حال ، كان للتوسع الذي شاهدته تلك الآونة نتائجه السلبية ، حيث قاد اتساع الدولة إلي الاصطدام بالطبقة الارستقراطية المعارضة لدفع الضرائب ، بينما أدي التكتل السياسي في البلاط إلي فشل السياسات ، والمبالغة في قوة الجيش الإمبراطوري ، وإهمال الأسس الدفاعية . فعندما كانت القوات التركية قادرة علي هزيمة القوات الإمبراطورية في سنة ١٠٧١م في أكثر من موقع ، وأسر الإمبراطور رومانوس الرابع [٨]،ولم تتمكن الإمبراطورية من تنظيم هجوم مضاد ، كانت النتيجة ضياع آسيا الصغرى تدريجيا .

وأدت الإصلاحات الكبرى التي قام بها أباطرة أسرة كومنين – عشيرة أرستقراطية – فيما بعد في الجيش والمالية سنة ١٠٨١ إلي إعادة الاستقرار داخليا ، كما استقر إلي حد ما الوضع الدولي .

وبينما واصلت وحدات المرتزقة الأجانب القيام بدور متميز ، فإن الوحدات البيزنطية من المتطوعين تخصصت في مختلف فروع الأسلحة ، مما أعاد المقدرة للجيوش الإمبراطورية علي محاربة الأعداء في الخارج بنفس أساليبهم . لقد اعتمد ذلك إلي حد ما علي إصلاح الإدارة المالية من جانب ، وزيادة وتقوية الفرق علي أساس توفير ريع مضمون لأفراد بعينهم مقابل أن يوفروا جندا مدربين مشاة وفرسان من جانب آخر .

لقد تميزت تلك المرحلة عن سابقتها (القرن السابق) بزيادة التأثير الغربي في شكل الأسلحة مثل القوس والنشاب وتبني تكتيك الفروسية الثقيلة . وإن كان نجاح الأسرة الحاكمة قصير الأجل ، التوسع . خسارة بلغاريا وكثير من البلقان . فيما يمكن تسميته بالتمرد القومي ، وانهيار الإمبراطورية إلي أحزاب منشقة في سنتي ١١٨٠و١١٩٠مما أدي إلي فتح باب التهديدات الخارجية وقد تجسد ذلك في شكل الحملة الصليبية الرابعة .

وقد انهي سقوط ونهب القسطنطينية ، وما تلاه من تقسيم الإمبراطورية بين البنادقة والغرب الصليبي دور الإمبراطورية كقوة سياسية وعسكرية كبري ، علي الرغم من استعادة القسطنطينية في سنة ١٢٦٠ ، وإعادة النظام الإمبراطوري علي مساحة صغيرة ، تقلصت حتى شملت القسطنطينية وقليل من الجزر الإيجية . وفي سنة ١٤٥٣ قضي السلطان العثماني محمد الثاني علي ما تبقي منها.

٨ – اعتلي رومانوس الرابع ديوجينوس العرش في١٠٦٨ ، وفي محاولة منه للقضاء علي خطر السلاجقة لحقت به هزيمة مدمرة ووقع أسيرا في يد سلطانهم ألب أرسلان في معركة مانزكرت سنة ١٠٧١ . وقد وافق الأخير علي إطلاق سراحه مقابل فدية كبيرة مع عقد اتفاقية نصت علي أن يدفع رومانوس جزية سنوية للأتراك ، وإمداد الترك بالمعونة العسكرية متى طلبوها وبعد توقيعه تلك المعاهدة عاد رومانوس إلي القسطنطينية ، ولكنه فوجئ بعزله عن العرش. أنظر، زبيدة عطا: الترك في العصور الوسطي ، دار الفكر العربي القاهرة ، ص ٤٩.

ومهما يكن من أمر، فإنه يمكننا رصد مراحل التطور العسكري للإمبراطورية البيزنطية ، وهي بالتحديد خمس مراحل: الاسترداد والتوسع ، في عهد جستنيان خلال القرن السادس، الانكماش والتمركز والدفاع في القرنين السابع والثامن ، الثبات والاقتراب أكثر من الهجوم في المرحلة من القرن التاسع إلي الحادي عشر. الانهيار وإصلاح البناء الموروث، من أواخر الحقبة القديمة خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر. مع قليل من التوسع بالرجوع إلي آسيا الصغرى في ظل حكم كل من الكسيوس الأول، ويوحنا الثاني و مانويل حتى سنة ١١٧٠، وأخيرا الاضمحلال التدريجي حيث انكماش الإمبراطورية بسبب: أولا التقسيم الذي أعقب الحملة الصليبية الرابعة ، وثانيا نمو القوة الصربية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر .

جدول زمني / تاريخي

٤٧٤ - ٤٧٥	زينون إمبراطورا للشرق.
٤٥٧ - ٤٧٦	اغتصاب باسيليكوس السلطة في الشرق.
٤٧٦	موت رومولوس أوغسطولوس آخر إمبراطور روماني غربي.
٤٧٦ - ٤٩١	استرداد زينون لعرشه.
٤٩١ - ٥٨١	اناستاسيوس الأول إمبراطورا للشرق.
٤٩٣ - ٥٢٦	ثيودريك يحكم مملكة الأوستروقوط في إيطاليا.
٥٠٣ تقريبا	اعتراف اناستاسيوس بسلطة كلوفيس ملك الفرنجة ممثلا للرومان.
٥٠٧ - ٥١١	مملكة الفيزيقوط في أسبانيا.
٥١٨ - ٥٢٧	جستين الأول.
٥٢٧	جستنيان إمبراطورا.
٥٣٣ - ٥٣٤	بليزاريوس يغزو أفريقيا (استمر الغزو حتى ٥٤٠).
٥٣٤	بليزاريوس يبدأ غزو إيطاليا (في حرب استمرت حتى ٥٣٣.
٥٣٧	تكريس الكنيسة الجديدة ، كنيسة الحكمة المقدسة (آيا صوفيا بالقسطنطينية).
٥٤٠	الملك الفارسي خسرو الأول يستولي علي أنطاكية.
٥٤٢	البلغار ينفذون إلي العالم البيزنطي.
٥٥٠	الآفار يقيمون حكمهم علي سلاف شمال البحر الأسود والدانوب.
٥٥٢	نارسيس يدحر توتيلا ويقضي علي آخر مقاومة للأوستروقوط في إيطاليا.
٥٥٣	غزو الفيزيقوط لجنوب شرق أسبانيا.
٥٥٨	المعاهدة مع الآفار والموافقة علي أداء الجزية.
٥٦٢	توقيع معاهدة لمدة خمسون عاما سلام مع الفرس.
٥٦٤ - ٥٩١	الحرب مع الفرس.
٥٦٦	البلغار يبدأون التسلل عبر الحدود الدانوبية ، والضغط علي الحدود من قبل الآفار.
٥٦٨	اللمبارد يتدفقون إلي الغرب من الدانوب لغزو إيطاليا.
٥٧٢	اللمبارد يحاصرون رافنا.
٥٧٧	الآفار يشنون هجوما شاملا علي البلقان.

٥٨٤ - ٥٨٦ الغزو الآفاروسلافي لتسالونيكا.
٥٩١ - ٦٠٢ نجاح تدريجي في زحزحة الآفار إلي الخلف.
٦٠٢ عزل موريس وإعلان فوقاس إمبراطورا.
٦٠٣ الحرب مع الفرس وتدهور الوضع في البلقان.
٦١٠ قيام هرقل ابن إكسارخ أفريقيا في قرطاج باعتلاء عرش بيزنطة.
٦١١ - ٦٢٠ ضياع وسط وشمال البلقان.
٦١٤ - ٦١٩ احتلال الفرس لسوريا وفلسطين ومصر.
٦٢٢ هجرة الرسول صلي الله عليه وسلم من مكة إلي المدينة.
٦٢٦ فشل التحالف الآفاروسلافي والفارسي في محاصرة القسطنطينية.
٦٢٦ - ٦٢٨ هرقل يهزم القوات الفارسية في الشرق.
٦٢٩ السلام مع الفرس.
٦٣٤ بدأ العرب فتح فلسطين.
٦٣٤ - ٦٤٦ الفتح الإسلامي لسوريا وفلسطين وأرض الجزيرة و مصر (٦٣٦ معركة اليرموك).
٦٤٤ بداية فترة من الغزوات والحملات ضد بيزنطة في آسيا الصغرى.
٦٥٥ هزيمة بيزنطة أمام الأسطول الإسلامي في معركة فونيكس" ذات الصواري".
٦٦٨ ميزيزيو Mizizio يعلن نفسه إمبراطورا لصقلية لكنه مني بهزيمة علي يد قوات لقسطنطين الرابع.
٦٧٩ - ٦٨٠ وصول البلغار إلي الدانوب وهزيمة القوات البيزنطية بقيادة قنسطنطين الرابع.
٦٨٠ - ٦٨١ مجمع القسطنطينية الثالث (وهو المجمع المسكوني السادس).
٦٨٥ - ٦٩٢ المعاهدة بين الخليفة وبيزنطة (حرب أهلية عربية).
٦٩١ - ٦٩٢ مجمع ترولان في القسطنطينية Ouinisext Trullan Councle .
٦٩٣ هزيمة بيزنطة في سباستوبوليس.
٦٨٩ فتح العرب قرطاج الخسارة النهائية لأفريقيا.
٧٢٧ - ٧١٨ حصار القسطنطينية، استيلاء ليو قائد ثغر الأناطليق علي السلطة وتتويجه باسم ليو الثالث.
٧٢٦ - ٧٣٠ ليو يناهض عبادة الأيقونات ، وبدايات النزاع اللاأيقوني.
٧٣٩ ليو وقسطنطين يهزمان العرب في أكرنيون.

٧٤٠ ارتباسدوس ، صهر ليو يتمرد علي قسطنطين الخامس ويستولي علي القسطنطينية.

٧٤٣ - ٧٤٤ هزيمة ارتباسدوس.

٧٤٦ الطاعون في القسطنطينية.

٧٥٠ - ٧٧٠ قسطنطين يشن حملة كبري ضد البلغار والعرب.

٧٩٢ هزيمة البيزنطيين زمن قسطنطين السادس أمام البلغار في ماركيلاي

٧٩٧ عزل قسطنطين السادس من قبل أمه ويعمي ويموت.

٨٠٠ تتويج شارلمان من قبل البابا في كنيسة القديس بطرس في روما.

٨٠٢ عزل ايرين علي يد وزير ماليتها نقفور الأول.

٨١١ هزيمة نقفور ومقتله علي يد قوات الخان البلغاري كروم بعد حملة بيزنطية ناجحة في بدايتها.

٨١٣ انتصار البلغار علي يد القوات البيزنطية.

٨١٥ ليو الخامس يعقد مجمعا في القسطنطينية ، وعودة مناهضة الأيقونات كسياسة

٨٢١ -٨٢٣ تمرد توماس السلافي.

٨٢٤ بداية الغزو العربي لصقلية وكريت ، الغزو العربي لآسيا الصغرى ونهب عمورية

٨٤٣ انعقاد مجمع القسطنطينية لإعادة التأكيد علي أعمال المجمع المسكوني السابع، الوصية تيودورا ورئيس البلاط يسمحان بعودة الصور ونهاية الصراع اللاأيقوني رسمياً.

٨٥٠ نشاط تنصيري فعال في بلغاريا.

٨٦٠ الروس (الفايكنج) يهاجمون القسطنطينية ، قيام كيرلس بالتنصير بين الخزر.

٨٦٣ انتصار بيزنطي كبير علي العرب في بوسون في الأناضول.

٨٦٤ تحول خان البلغار وقادته إلي المسيحية.

عقد مجمع برئاسة باسيل الأول في القسطنطينية لحسم الشقاق الفوطيوي ، عزل فوطيوس وإعادة سلفه أجناتيوس إلي كرسيه ، الكنيسة في بلغاريا تصبح في دائرة نفوذ كنيسة القسطنطينية عكس مطالب البابا.

٩٠٠ الخسارة النهائية لصقلية ، التوسع البلغاري تحت قيادة القيصر سيمون والحرب مع بيزنطة.

٩١٧ الانتصار البلغاري عند نهر آشيلو.

٩٢٢ السلام مع البلغار.

٩٢٣ -٩٤٤ القائد حنا كوركواس يقود التوسع البيزنطي شرقا.

٩٦٠ - ٩٦١ قيام يوحنا فوقاس باسترداد كريت.

٩٦٣ هجوم ضخم للقوات البيزنطية في الشرق، واستحداث أقاليم حدودية جديدة .

٩٦٥ استيلاء نقفور الثاني علي طرسوس وقبرص.

٩٦٩ استيلاء نقفور الثاني علي حلب وأنطاكية.

٩٦٩- ٩٧٦ حكم يوحنا الأول زيميسكس، واستمرار التوسع شرقا ، هزيمة البلغار بمساعدة الحلفاء الروس بقيادة سيفياتوسلاف . وهزيمة الروس في سيلسترا.

٩٥٧ غزو يوحنا الأول فلسطين ، والاستيلاء علي عدة بلدان وحصون ثم انسحابه منها.

٩٨٥ – ٩٨٩ المقاومة البلغارية غرب البلقان تؤدي إلي اتساع إمبراطورية البلغار بقيادة القيصر صمويل ، واعتناق فلاديمير أمير كييف المسيحية.

٩٩٠ -١٠١٩ باسيل الثاني يسحق المقاومة البلغارية.

إعادة ضم بلغاريا إلي الإمبراطورية وعودة الدانوب حدا جديدا في الشمال .

١٠٢٢ ضم المناطق الأرمينية إلي الإمبراطورية .

١٠٣٤-١٠٤١ الإمبراطور ميخائيل الرابع يتخذ خطوات أولية لتخفيض قيمة العملة الذهبية .

١٠٥٤ القطيعة مع البابوية .

١٠٥٥ هيمنة السلاجقة علي بغداد ، ازدياد قوة النورمان في جنوب إيطاليا .

١٠٧١ هزيمة وأسر الإمبراطور رومانوس الرابع علي يد السلاجقة في مانزكرت . بداية الاحتلال التركي لوسط الأناضول ، استيلاء النورمان علي باري .

١٠٧٠ تقدم البشناق في البلقان ، حرب أهلية في الإمبراطورية .

١٠٨١ تمرد الكسيوس كومنين وانتصاره علي نقفور الثالث ، وتتويجه إمبراطورا .

١٠٨٢-١٠٨٤ غزو النورمان لأقاليم غرب البلقان .

١٠٩١ قيام السلاجقة والبشناق بحصار القسطنطينية ، هزيمة البشناق .

١٠٩٧ الحملة الصليبية الأولي وهزيمة السلاجقة .

١٠٨٩-١٠٩٩ إقامة إمارات لاتينية في فلسطين وسوريا ومملكة بيت المقدس الصليبية .

١١٠٨ هزيمة النورمان بقيادة بوهيمند علي يد الكسيوس .

١١١١ منح بيزا امتيازات تجارية .

١١٣٠ التحالف مع الإمبراطور الجرمانية ضد نورمان جنوب إيطاليا .

١١٣٨-١١٤٢ المواجهة البيزنطية مع إمارة أنطاكية الصليبية .

١١٤٣ -١١٨٠ مانويل كومنين السياسات الغربية السابقة تصبح عاملا هاما في سياسة بيزنطة الخارجية .

١١٤٦ – ١١٤٨ الحملة الصليبية الثانية .

١١٥٣ معاهدة كونستانز بين فردريك الأول بارباروسا والبابوية .

١١٥٥ – ١١٥٧ نجاح الحملة الإمبراطورية في إيطاليا ، مفاوضات تجارية وسياسية مع جنوة .

١١٥٨ – ١١٥٩ زحف القوات البيزنطية علي أنطاكية .

١١٦٠ وفاة الإمبراطور مانويل ، ازدياد مشاعر العداء للغرب في القسطنطينية.

١١٨٢ مذبحة للغربيين في القسطنطينية ، وخاصة التجار الإيطاليين وتابعيهم . النورمان ينهبون سالونيك ، خلع اندرونيكوس كومنين .

١١٨٦ التمرد في بلغاريا ، هزيمة القوات المحلية ، إقامة مملكة البلغار الثانية .

١١٨٧ هزيمة الصليبيين في موقعة قرون حطين ، استعادة صلاح الدين القدس .

١١٩٢ معاهدات مع جنوة وبيزا .

١٢٠٣ – ١٢٠٤ الحملة الصليبية الرابعة بدعم من البندقية (مالي ـ بحري). الزحف علي القسطنطينية والاستيلاء عليها ، ونهبها عام ١٢٠٤ وإقامة الإمبراطورية اللاتينية بها وإقامة إمارات ومناطق أخري إما تحت حكم اللاتين أو البنادقة.

١٢٠٤ – ١٢٠٥ إنشاء إمارات وراثية في نيقية ، وأبيروس ، وطرابيزون .

١٢٠٥ هزيمة الإمبراطور اللاتيني للقسطنطينية بلدوين الأول علي يد البلغار .

١٢٥٩ نجاح ميخائيل الثامن في ارتقاء عرش إمبراطورية نيقية ، والجيش النيقي يهزم تحالفا لاتينيا و Epirot في موقعة بلاجونيا ، واستسلام قلاع بلدة ميسترا للبيزنطيين (نيقية).

١٢٦١ دخول قوات نيقية القسطنطينية ونجاحها في الاستيلاء عليها أثناء غياب القوات اللاتينية الرئيسية .

١٢٦٥ البابا يدعو شارل الانجوي أخا لويس التاسع ملك فرنسا لدعمه عسكريا في مواجهة مانفرد حاكم صقلية والهوهنشتاوفن في إيطاليا.

١٢٦٦ شارل الانجوي وخططه المدعومة بابويا لغزو وفتح القسطنطينية.

١٢٧٤ يوحنا العاشر يدعو لعقد المجمع الثاني في ليو حضور ممثلي الكنيسة

البيزنطية الموافقة علي اتحاد الكنائس تحت تهديد البابوية بتأييد الغزو الذي سيقوم به شارل الانجوي ، ورفض البيزنطيين للاتحاد .

١٢٨٠ - ١٢٢٧ العثمانيون يأخذون كل ما تبقي تقريبا من ممتلكات بيزنطة في آسيا الصغري

(افيسوس ١٣٢٨ ، بورصا ١٣٢٦) .

١٢٨٢ الغروب الصقلي ـ موت شارل الانجوي ونهاية خططه في غزو بيزنطة .

١٢٨٥ مجمع القسطنطينية (المجمع السنودي الثاني في بلاشيرنيا (ناقش ورفض التفسير الغربي للثالوث كما أعلن البطريرك يوحنا الحادي عشر بيكوس رفضه

كذلك لقرارات مجمع ليون (١٢٧٤) .

١٣٠٣ أندرونيكوس الثاني يتخذ من جماعة القطلان قوات مرتزقة .

١٣٤١ - ١٣٤٧ حرب أهلية بين يوحنا الخامس (بدعم صربي) ويوحنا السادس كنتاكوزينوس

(بمساعدة تركية) .

١٣٤٦ تتويج اسطفان دوشان إمبراطورا للصرب واليونان .

١٣٤٧ الموت الأسود ينتشر في القسطنطينية .

١٣٥٤ - ١٣٥٥ حرب أهلية بين يوحنا السادس ، ويوحنا الخامس (بدعم من جنوا) .

العثمانيون يعملون كحلفاء ويقيمون في غاليوبولي وتراقيا .

١٣٥٥ تخلي يوحنا السادس عن السلطة ، ودخوله الدير . ويوحنا الخامس يقترح علي

البابا اتحاد الكنائس .

١٣٦٥ العثمانيون يستولون علي أدريانوبل ، ويتخذونها قاعدة لهم .

١٣٦٦ يوحنا الخامس يزور المجر بحثا عن دعم في مواجهة التهديد العثماني .

١٣٧١ العثمانيون يهزمون الصرب .

١٣٧٣ يوحنا الخامس يجبر علي التبعية للسلطان العثماني مراد الأول ، وتمرد اندرونيكوس الرابع ابن يوحنا وهزيمة الأخير .

١٣٧٦ - ١٣٧٩ الحرب الأهلية في بيزنطة : أندرونيكوس الرابع يتمرد ضد أندرونيكوس الخامس بدعم من ابنه الأصغر مانويل .

١٣٧٩ يوحنا الخامس يستعيد منصبه بعون الأتراك والبنادقة .

١٣٨٨	هزيمة البلغار من العثمانيين .
١٣٨٩	معركة كوسوفو : العثمانيون يجبرون الصرب علي الانسحاب ، نهاية الإمبراطورية الصربية ، ارتقاء بايزيد الأول العرش .
١٣٩٣	الأتراك يستولون علي تساليا ، معركة Trnovo، تحطم الإمبراطورية البلغارية .
١٣٩٦	سجموند المجري ينظم صليبية جديدة لمواجهة الخطر العثماني ولكنه هزم في نيقوبولس هزيمة وبيلة .
١٣٩٧ - ١٤٠٢	بايزيد الأول يحاصر القسطنطينية ، لكن الجيش ينسحب نتيجة هزيمته أمام قوات تيمور لنك في معركة أنقره عام ١٤٠٢ .
١٤٢٢	مراد الأول يفك الحصار عن القسطنطينية .
١٤٢٣	حاكم سالونيك (جون الثامن) يسلم المدينة إلي البنادقة .
١٤٣٠	العثمانيون يستولون علي سالونيك ، حدوث مذبحة للمدنيين ورجال الحامية البنادقة .
١٤٣٩	انتقال مجمع فريرا إلي فلورنسا ، حيث قدمت الموافقة الرسمية من قبل الإمبراطور يوحنا الثامن علي وحدة الكنائس .
١٤٤٤	صليبيون ، ومجر بقيادة فاديسلاف حاكم المجر وبولندا في معركة فارنا . مقتل فاديسلاف .
١٤٤٨	وفاة يوحنا الثامن ، وتولي أخيه حاكم استبدادية موريا ، واعتلي العرش باسم قنسطنطين الحادي عشر وتوج في ميسترا .
١٤٥١	محمد الثاني يصبح سلطانا .
١٤٥٢	إعلان وحدة الكنائس في القسطنطينية .
١٤٥٣	محمد الثاني يحاصر القسطنطينية (٢٩ مايو) والنيشارية يخترقون الدفاعات مما سمح للقوات العثمانية بالدخول إلي المدينة . وفاة الإمبراطور قنسطنطين الحادي عشر آخر أباطرة بيزنطة في القتال ولم تعرف جثته علي الإطلاق .
١٤٦٠	سقوط ميسترا في يد الأتراك .
١٤٦١	سقوط طرابيزون في يد الأتراك .

خلفية الحرب

"عالم بيزنطة السياسي"

قام هيكل الدولة الرومانية المسيحية علي التسلسل الهرمي لمستويات الإدارة، ففي قمة الهرم كان الإمبراطور، ومفهوم أنه ممثل الرب، تحيطه إدارة القصر ورجال البلاط، مركز الحكومة الإمبراطورية وإدارتها. وكانت الدولة مقسمة إلي ولايات واسعة المساحة يديرها ولاة براتوريين فوضت لهم الإدارة المالية والمدنية من قبل الإمبراطور. كما قسمت كل ولاية إلي مقاطعات لكل مقاطعة ماليتها المستقلة. وبدورها قسمت المقاطعة إلي أقاليم وهي وحدات ذات هيمنة مالية وقضائية. وتلك الأقاليم تم تقسيمها إلي مدن بما يتبعها من ضواحي، وكل مدينة تدار وتوابعها محليا وتتسع أو تقل مساحتها وفقا للعوامل الجغرافية والكثافة السكانية وغير ذلك من العوامل.

كان الإنتاج الزراعي هو المهيمن علي الاقتصاد، بيد أن النخبة المتعلمة من ملاك الأرض الزراعية كانت تقيم في المدن. حيث كانت الوجاهة الاجتماعية تتحدد بشكل كبير وفقا لمدي علاقة الفرد بنظام الألقاب الإمبراطوري والأسبقية فيه. وما إذا كان يشغل منصبا فاعلا في الإدارة الإمبراطورية، وفي أي مستوي، وما إلي ذلك. مع مراعاة الفوارق الإقليمية التي كان يعتد بها في هذا الشأن.

ولقد لعبت الكنيسة والنظام اللاهوتي التي تمثله (صارت المسيحية ديانة رسمية للدولة الرومانية منذ القرن الرابع) دورًا محوريًا في اقتصاد العالم الروماني. وكانت من كبار ملاك الأراضي، كما قامت بمثل ذلك الدور في سياسة الإمبراطورية والتأثير علي المعنويات والمثل في العالم الروماني. وأيضاً في توجيه السياسة الدينية في الإمبراطورية.

وكان الرأي السائد أن الإمبراطور اختير من قبل الرب، وعليه أن يكون أرثوذكسيا، ودوره هو الدفاع عن مصالح الأرثوذكس. في المسكونة أي العالم الروماني المتحضر، ومن الآثار التي ترتبت علي ذلك الرأي أن أي بدعة كانت تعد خيانة. وبالتالي كانت أي معارضة للإمبراطور الأرثوذكسي تعامل علي أنها بدعة. وإلي وقت متأخر ظلت الدولة الرومانية المتأخرة تعاني من بيروقراطية شديدة التعقيد متشعبة في كياناتها الاجتماعية وعلاقات الإنتاج القائمة علي الفروق المحلية عبر وسط وشرق المتوسط والبلقان.

وتجدر الإشارة إلي؛ أن التوترات الاجتماعية والسياسية ازدادت تفاقمًا بسب الانقسامات الدينية، والظروف الاقتصادية المحلية، والسياسة الإمبراطورية، والعبء الملقي علي كاهل

السكان دافعي الضرائب الناجم عن احتياجات الدولة فيما يتعلق بجهازها الإداري وبصفة خاصة جيوشها.

وشهدت الفترة من القرن السادس وحتى بدايات القرن التاسع تحولا جذريا في هيكل الإمبراطورية الاجتماعي والسياسي نتيجة عدة عوامل، أكثرها أهمية الفتح الإسلامي، فمع حلول سنة ٦٢٤م خسرت الإمبراطورية كل من مصر وأقاليم الشرق الأوسط. وتوغلت القوات العربية في عمق آسيا الصغرى وليبيا، واضطرت القوات الإمبراطورية إلي الانسحاب باتجاه مواقع آمنه تتيح لها وسائل الدعم في أقاليم آسيا الصغرى. ويمكن القول أن الإمبراطورية فقدت خلال اثنتا عشرة سنة ما يزيد عن نصف مساحتها، وثلاثة أرباع مواردها، وهي خسارة فادحة لدولة إمبراطورية عليها الحفاظ ـ إن أرادت البقاء ـ علي قوة عسكرية معقولة جيدة التجهيز وإدارة بيروقراطية فاعلة.

وبينما ترجع كثير من التطورات التي أدت إلي مثل هذا التحول إلي أمد ابعد من القرن السابع، فإن ذلك الظرف هو الذي دفع بالأمور إلي السطح مما عزز الاستجابات التي أعقبت ذلك في هيكل الدولة. لقد بزغ مجتمع ريفي ويمكن أن يعزو ذلك إلي ما تعرضت له المدن من هجر أو دمار أو فقدان بعضها في آسيا الصغرى بسبب أعمال الغزو والإغارة . ولعبت الخصائص الدفاعية للمواقع الحضرية سواء ما يتعلق بالقوات المحاربة أو الإدارة أو الاحتياجات الكنسية دورا محوريا في بقاء المدن ، وصارت القسطنطينية أبرز مدن الإمبراطورية قاطبة .

وفيما يتعلق بالنخبة الاجتماعية فقد زادت أعدادها ، وكانت تمثل فئة "الرجال الجدد" الذين اختارهم الإمبراطور علي أساس الجدارة، وكانوا يعتمدون كلية علي رعاية الإمبراطور لهم. ونتيجة لازدياد قبضتهم علي أجهزة الدولة وتراكم الأراضي الممنوحة لهم نظير خدماتهم سرعان ما تحولت هذه النخبة إلي طبقة أرستقراطية. لقد كانت تلك النخبة تعتمد كليا خلال القرنين الثامن والتاسع اعتمادا كبيرا علي الدولة، ولكنها صارت مستقلة بشكل متزايد خلال القرن العاشر وبصفة خاصة القرن الحادي عشر. ووجدت الدولة أنها مضطرة إلي الدخول في صراع مع تلك الشريحة الاجتماعية بعد تزايد ثرواتها وممتلكاتها بشكل فاحش، ورسوخ مكانتها في أجهزة الدولة مما شكلت معه خطرا حقيقيا علي السيطرة المركزية للدولة علي الموارد المالية.

لقد أفرزت أحداث القرن السابع إعادة تأكيد سلطة الدولة في مواجهة النزعات الرومانية نحو اللامركزية، وإن جاء ذلك في وقت متأخر. كما تم تحديد مفهوم الدولة وتعريف دورها بشكل جزئي وفقا لطبيعة العلاقات الاقتصادية الرئيسية.

وتمثل ذلك في إصدار وتداول العملة وفق آلية تمكن الدولة من تحويل الناتج الزراعي إلي موارد مالية يمكن تداولها. وكانت العملة تسك أساسا لدفع عجلة أجهزة الدولة. كما كانت المبالغ المالية تخصص وتستهلك وفق آلية مالية لإعادة التوزيع. فالدولة تصدر العملات الذهبية علي شكل رواتب سخية للإدارة البيروقراطية وللجيوش، والذين ينفقون جزءًا كبيرًا منها للحصول علي سلع وخدمات حياتيه، ويمكن للدولة جمع الكثير من العملة من خلال الضرائب وفق سياسة مالية تلزم دافع الضريبة بتسديدها ذهبا وتوفر في المقابل عملات برونزية.

وتجدر الإشارة إلي أن الظروف أعاقت ذلك النظام في بعض الأحيان، مما أدي إلي القيام بإجراءات يمكن معها توفير ما يلزم من مال لتمويل الجند برفع قيمة الضريبة العينية (مثلما حدث في القرن السابع) وبالضرورة أختلف قدر تلك الضريبة باختلاف المناطق. غير أنه في مجتمع تم ربط الوضع الاجتماعي فيه بالعلاقة بالدولة (يشمل ذلك الطبقة الأرستقراطية) فإن مثل تلك الإجراءات عرقلت إلي حد بعيد الأنشطة الاقتصادية الغير مرتبطة مباشرة مع أنشطة الدولة.

كان للسلطة وجاذبية المؤسسة الإمبراطورية في القسطنطينية وبلاطها ونظام الأسبقية الهرمي، إلي جانب الدرجة العالية من المركزية للهيكل الإداري المالي، ما جذب جل اهتمام النخبة البيزنطية. وبطبيعة الحال أدي ذلك إلي إعاقة تطور الطبقة الارستقراطية المحلية والتي كان بمقدورها – من مواقعها الخاصة – الاستثمار في الاقتصاد وبنية المجتمع.

إن التنامي في سلطة النخبة كان نشطا نتيجة ما جرى علي الساحة من تطورين هامين. ففي المقام الأول تأتي زيادة تبعية الفلاحين المنتجين لكل من ملاك الأرض ولأصحاب المنح من عائدات الدولة. أما التطور الثاني فكان تنازل الدولة منذ أخريات القرن الحادي عشر عن حقها في تلقي عائدات مناطق معينة (مال أو ضرائب) وكذلك الأمر في بعض الضياع الإمبراطورية للقائمين عليها مما شجع علي فقدان تدريجي لحق الدولة المالي والقضائي في تلك المناطق.

ونتيجة للإعفاءات الضريبية المتنوعة من قبل الأباطرة ، فقد كان بمقدور مالكي الأرض من العلمانيين ورجال الدين، الحفاظ علي نسبة كبيرة من العائدات المأخوذة من مزارعيهم لأنفسهم كإيجار، بينما ما بقي تحت قبضة الحكومة من ريع واجب علي باقي أراضي الدولة كان دوما موضع طعن النخبة المحلية. كان لهذا الأمر نتائج هامة، لأنه يعني أن العبء الإجمالي المفروض علي المزارعين المنتجين ارتفع إلي حد بعيد. وقد حاول المستأجرين الذين يحصلون علي رعاية الإمبراطور تحرير أنفسهم من كثير من هذه الالتزامات من خلال الحصول علي إعفاء من نوع أو آخر، علي الرغم من أن احتياجات ومطالب القوات العسكرية المحلية كانت تعني تجاهل تام لمثل ذلك الامتياز.

ولا شك؛ أنه من غير الممكن تجاهل حجم الموارد التي كانت تخسرها الدولة بسبب منح الإعفاء من الضرائب الإضافية. ولقد أشار أحد كتاب القرن الحادي عشر إلي وطأة الأعباء الملقاة من ملاك الأراضي علي عاتق المزارعين المستأجرين لأراضيهم، مبينا أن إلغاء تلك الامتيازات للملاك يحرر المستأجرين من الالتزامات المفروضة عليهم نتيجة الإيجار والخدمات الأخرى.

وتجدر الإشارة إلي؛ أن التضارب في المصالح بين النخبة من ملاك الأراضي وذوي النفوذ من أصحاب المناصب من جهة والحكومة من جهة أخرى والذي بدا جليا في أخريات القرن الحادي عشر تم تجاوزه منذ عهد الإمبراطور الكسيوس الأول كومنين حتى نهاية القرن الثاني عشر بحكم التحول في عهد أسرة كومنين من الإمبراطورية إلي ما كان في الواقع ضيعة عائلية عملاقة. وقد حكمت تلك الأسرة من خلال شبكة من الأقطاب والأقارب والمحسوبية، والتي توسعت بسرعة خلال القرن الثاني عشر، فقد حدث توحد للمصالح بين النخبة المهيمنة اجتماعيا واقتصاديا وتلك الأسرة الحاكمة وارتباط الطرفين بفكرة مركزية الإمبراطورية.

لقد أفرزت تلك التطورات تكتلات سياسية متصارعة حول من يمكنه الهيمنة علي القسطنطينية وارتقاء عرشها، وبدا ذلك واضحًا في المنازعات والحروب الأهلية التي أعقبت هزيمة الإمبراطور رومانوس الرابع أمام السلاجقة سنة ١٠٧١ م. غير أن الكسيوس الأول كومنين قدم الحل لتلك المسألة باستيلائه علي السلطة سنة ١٠٨١م.

وفي تلك الأثناء تحولت النخبة إلي فصيل أرستقراطي بقيادة عدد من العائلات قوية النفوذ ، وعدد من العشائر التابعة. وقد أمكن للعائلة الحاكمة وحلفائها الجدد في ظل حكم آل كومنين احتكار المناصب العسكرية والمدنية العليا، بينما سيطرت العائلات القديمة المنافسة لها علي آلية البيروقراطية في الدولة، كما مالت النخبة المحلية إلي مزيد من الهيمنة.

إن تلك العلاقات الاجتماعية بهذا الشكل سهلت الصراع الداخلي والتشرذم اللذان ميزا القرنين الرابع عشر والخامس عشر علي وجه الخصوص.

جبهات متحاربة

"جيران وأعداء"

أشرنا فيما سبق إلي إستراتيجية مدركة تماما لوضع الدولة البيزنطية الصعب تجاه أعداء، أو من يحتمل عداؤهم، موجودون بالفعل علي أكثر من جبهة في وقت واحد. وكان الموقف بصفة خاصة معقدا في الشمال والغرب نتيجة لاختلاف الدول المجاورة والقوي السياسية. فمنذ قيامها في عام ٦٨٠ ، أخذت خانية البلغار في النمو السريع إلي أن اهلكوا علي يد باسيل الثاني Basil 11 (٩٧٦ ـ ١٠٢٥) المعروف بسفاح البلغار ، حيث كانوا يمثلون تهديدا دائما لأمن الأراضي الإمبراطورية في البلقان.

وكانت قوة البلغار ونفوذهم قد تزايدا خلال القرنين الثامن والتاسع وحتى بواكير القرن العاشر، علي الرغم من الهجمات المضادة الناجحة التي شنها الإمبراطور قنسطنطين الخامس في عامي ٧٦٠ و ٧٧٠. ولعل عام ٨١١ كان أسوأ الأعوام في تاريخ الإمبراطورية عندما ألحق الخان كروم هزيمة ساحقة بالجيش الإمبراطوري ، وقتل الإمبراطور نقفور الأول Nikephores 1.

وتجدر الإشارة إلي؛ أن تحول عناصر النخبة البلغارية الحاكمة إلي المسيحية في عام ٨٦٠م كان يرمي إلي ترسيخ الوضع المحابي لبيزنطة، غير أن انطباع تلك الصفوة بشكل تدريجي بالصبغة البيزنطية كرس فقط نمو سياسات بلغارية إمبراطورية غايتها جعل الدولتين بيزنطة وبلغاريا تحت حكم البلغار.

وكانت انتصارات البلغار بقيادة القيصر سيميون (Tsar Symeon في السنوات الخمسة عشرة الأولي من القرن العاشر غاية في الخطورة. بينما كان إعادة التأكيد علي نظرية الإمبراطورية في عهد القيصر صمويل Tsar Samuel ، سببا في بدء نزاع مسلح بعد فترة من سلام نسبي في منتصف القرن العاشر، قادت في النهاية إلي إنهاء السيادة البلغارية واستقلاليتها، واستعادة البيزنطيين لكثير من البلقان وحتى الدانوب ، وذلك في بداية القرن الحادي عشر. وفيما عدا بعض الثورات العرضية، فإن الإقليم ظل في أيدي البيزنطيين إلي قبيل الحملة الصليبية الرابعة في ١٢٠٣ـ ١٢٠٤.

وقد نجم عن التقسيم اللاتيني للإمبراطورية بعد عام ١٢٠٤، تزايد معدل استقلال الجماعات المحلية في البلقان، وبرزت دول جديدة، كانت أكثرهم تميزا، إمبراطورية الصرب

(اسطفان دوشان) Stefan Dushan [١]. غير أن مقدم العثمانيين في القرن الرابع عشر ، وضع نهاية لهذا التطور.

وفيما يتعلق بالعلاقات مع إيطاليا والغرب، فكانت شائكة أيضا ، وكما ذكرنا ، فإن إيطاليا ، وشمال إفريقيا ، والركن الجنوبي الشرقي من شبه جزيرة إيبيريا ، كان قد تم لجستنيان استردادهم بتكلفة عالية من كل من القوط الشرقيين والوندال والقوط الغربيين علي التوالي . لكن ظهور اللمبارد [٢] في إيطاليا (ملاحقين من الآفار بناء علي طلب بيزنطة) سرعان ما نجم عنه تمزق أملاك الإمبراطورية هناك إلي عدد من الأقاليم المنفصلة تحت قيادات عسكرية أو أدواق Duces .

وكانت المناطق الإمبراطورية في الأقاليم الشرقية والوسطي يرأسها إكسارخ Exarch . وهو قائد يتمتع بسلطة عسكرية و مدنية . غير أن البعد عن القسطنطينية ، وتفوق الجماعات المحلية ، والأوضاع السياسية ، كل ذلك إلي جانب السلطة الزمنية والروحية للباباوات في روما، أدي تدريجيا وبشكل حتمي في ذات الوقت ألي ضعف القبضة الإمبراطورية في إيطاليا . وبسقوط رافنا عاصمة الإكسارخية في يد اللمبارد عام ٧٥١ تضاءلت مساحتها ، وهو ما أدي إلي زيادة اعتماد البابوية علي الفرنجة في مواجهة اللمبارد.

وكان لازدياد استقلالية الحكومات المحلية في شبه الجزيرة الإيطالية دوره في تناقص السلطة الإمبراطورية علي كل من كلابريا ، وبروتيوم Bruttium ، وصقلية مع بدايات القرن التاسع. أما الكيانات السياسية الأخرى ، مثل نابلي فقد ظلت نظريا بيزنطية، ولكنها عمليا كانت مستقلة تمامًا. والبندقية التي زادت أهميتها في بداية القرن التاسع ظلت كذلك اسميا أرضا إمبراطورية. وحدث في عام ٨٠٠ ما أكد انفصال القسم الغربي عن القسم الشرقي سياسيا وثقافيًا، عندما تم تتويج شارلمان ـ علي يد البابوية ـ إمبراطورا للغرب الروماني.

وفيما يخص الاختلافات الثقافية، فقد بدت بوضوح من خلال السياسات الكنسية، والصراع بين الفرنجة والبيزنطيين والبابوية في وسط وغرب البلقان في محاولة فرض الهيمنة عليهما. وصار التنافس جليا في مواجهة الكنيسة الشرقية. وعلي الرغم من محاولات زواج

١ – كان ستيفن دوشان يحلم بأن يخلع الإمبراطور يوحنا الخامس باليولوجس عن عرش بيزنطة ، وأن بإمكانه اعادة مجد روما القديم ، ولعل ما دفع إلي مخيلته بمثل ذلك الحلم هو سيطرته إلي جوار المناطق التي تحتلها القبائل الصربية علي كل من ألبانيا ، وتساليا ، ومقدونيا ، في الوقت الذي أمست فيه بلغاريا تدور في فلكه . وقد سمي نفسه " سيد كل الإمبراطورية الرومانية تقريبا" . للمزيد ، انظر : رأفت عبد الحميد : الإمبراطورية البيزنطية جـ ١ ، العقيدة والسياسة، " قواعد الدبلوماسية البيزنطية " ص ٢٥١ـ ٢٩٤ القاهرة ٢٠٠٠ ، ص ٢٥٤.

٢ – قام اللمبارد بغزو إيطاليا في عام ٥٦٨ ، وكانوا حلفاء في الماضي ثم صاروا أعداء.
Adrian Goldwothy, Op. Cit., P.398.

المصلحة المتعددة بين بيزنطة وعدد من حكام الغرب ، فإن ازدياد القوة السياسية والثقافية والعسكرية للعالم الغربي حال دون تأكيد خطير لقوة الإمبراطورية الرومانية الشرقية في وسط حوض المتوسط . وتلقي النفوذ البيزنطي ضربة أكثر إيلاما في حوض المتوسط، باستيلاء المسلمين علي جزيرة صقلية في القرن التاسع.

ويمثل ضعف الإمبراطورية إبان الحروب الأهلية التي دارت في منتصف وأواخر القرن الحادي عشر ، ونمو الحركة الصليبية موضوعات شائكة ومعقدة . لقد كان التصور الساخر للغرب علي أنه متغطرس وجاهل من جانب ، يقابله تصور مماثل للشرق البيزنطي الغادر والعاجز من جانب آخر . وعلي الرغم مما قامت به الأسرة الكومنينية من حركة إحياء إمبراطوري منذ نهاية القرن الحادي عشر وطوال القرن الثاني عشر ، والذي جعل التقارب بين الجانبين ممكنا ـ بما في ذلك ـ الزمرة الغربية القوية الموجودة في القسطنطينية والتي رفع من شأنها الإمبراطور مانويل الأول ١١٤٣ـ ١١٨٠ ، إلا أن صراع المصالح في السيطرة علي التجارة من قبل الإمبراطورية من جانب والتجار الإيطاليين الراغبون في التوسع من جانب آخر ، كان ممتزجا بثقافة الشك بالإضافة إلي السياسة البندقية المخادعة والانتهازية مما أسفر عن إطلاق الصليبية الرابعة، ونهب القسطنطينية، وتقسيم الإمبراطورية الرومانية الشرقية إلي عدد من الممالك والإمارات اللاتينية.

وعن العلاقات في منطقة البلقان فقد واجه البيزنطيون مصاعب جمة في اختراق تلك المنطقة، حيث يوجد بها كثير من الممرات والمسارب الضيقة التي يصعب اختراقها . وفيما يخص العلاقات البيزنطية الروسية ، فإنها كانت إلي حد ما ذات نغمة مختلفة. كان السكان الشماليون في وسط حوض نهر روسيا يقدمون إلي منطقة البحر الأسود للتجارة والغزو من أجل السلب والنهب معا . وسرعان ما صاروا شركاء مقربون للإمبراطورية في التجارة (تحديدا في العام ٩٢٠) ، كما قاموا بتوفير المرتزقة للفرق العسكرية بالإمبراطورية ، وهم المعروفون باسم الحراس الفرانجيون(الورنك) Varangian guard .

إن قبول المسيحية في عهد فلاديمير في عام ٩٨٠، وزواج التحالف بين الأخير وباسيل الثاني دشنا فترة طويلة من التأثير الثقافي والروحي علي الروس . وانصرف ذلك إلي الثقافة الروسية وفكر الكنيسة والقيصر . إن التأثير الثابت لوسائل بيزنطة في الاختراق الثقافي في البلقان كان واضحا تماما في شكل وتنظيم وفكر الكنيسة الأرثوذكسية في المنطقة.

وكان الجيران الرئيسيون للإمبراطورية في الشمال والغرب حتى القرن العاشر هم البلغار، إلي جانب جماعات صربية مختلفة، وأخري من إمارات أو عشائر سلافية تقيم في غرب البلقان تتلقي الدعم أو تخضع للحكم المباشر للبلغار حينا أو لبيزنطة حينا. والروس من ورائهم.

وتواجد في منطقة السهوب منذ القرن الثامن شعوب الخزر ، ثم المجريون خلال القرن التاسع (الذين بدءوا في إقامة مملكة المجر المسيحية)، والبشناق[٣] في القرنين العاشر والحادي عشر. ومن بعدهم الكومان، إضافة إلي السلاجقة في الشرق . أما في إيطاليا والغرب، فإن السياسة الخارجية كانت تحت هيمنة البابوية وجارتها مملكة اللمبارد ، والدوقيات السابقة في المنطقة حتى القرن الثامن. ثم انتقلت الأمور إلي سطوة إمبراطورية الفرنجة في أطوارها المختلفة. ويمكن القول بصفة خاصة أن إمبراطورية الجرمان ـ الأوتوية ـ سيطرت علي وسط أوربا وإيطاليا منذ القرن العاشر، حيث كان لحكامها مصالح محددة في وسط أوربا والبلقان. وكان تنامي قوة مملكة المجر الشابة في القرن الحادي عشر بمثابة إضافة عنصر جديد إلي أطراف المعادلة.

وتجدر الإشارة هنا إلي مصاعب العلاقات بين الإمبراطورية الرومانية الشرقية والمجر، بصفة خاصة خلال عامي ١١٥٠ و ١١٦٠ حيث كانت المجر تلعب دورا مهما علي مسرح السياسة الدولية ، وذلك له شأنه فيما يخص علاقة بيزنطة مع الإمبراطورية الألمانية. كانت القسطنطينية مدركة لمصالح المجر في شمال غرب البلقان، غير أنها كانت مصدر قلق يهدد المصالح الإمبراطورية. وحاول الإمبراطور مانويل معالجة الأمر باستخدام كلا من الضغط العسكري، والدبلوماسي، فأرسل الحملات العسكرية لتهديد الحكام المنشقين وإجبارهم علي إتباع الخط الإمبراطوري. كما تدخل في سياسات الأسرة المجرية الحاكمة.

ومن جانب آخر، جاء تنامي قوة المدن البحرية الإيطالية وخاصة البندقية، وبيزا، وجنوا، بأساطيلها القوية، ومصالحها التجارية ليؤهلها منذ ذلك الوقت فصاعدا للعب دور جوهري في الحياة السياسية، والاقتصادية للإمبراطورية.

ولعل أخطر عدو في الغرب كان علي بيزنطة مواجهته هم النورمان في جنوب إيطاليا . وقد كانوا في السابق يعملون كجند مرتزقة في صفوف الجيوش البيزنطية . لكنهم تمكنوا من إقامة دولة مستقلة لأنفسهم في العقود الأخيرة من القرن الحادي عشر. وقاموا بمهاجمة البلقان عبر إيطاليا إبان حكم الإمبراطور الكسيوس الأول ، في عام ١٠٩٠ ، وبداية القرن الثاني عشر. لكنهم لم يحققوا نجاحا في هذا الصدد . غير أنهم مضوا في تأسيس أهم دولة في وسط حوض البحر المتوسط " مملكة صقلية " . وصاروا يمثلون خطرا كبيرا علي المصالح البيزنطية خلال ذلك القرن . إلا أنه يمكن القول أن النورمان لم يلعبوا دورا رئيسيا في تحويل الحملة الصليبية الرابعة ١٢٠٣ ـ ١٢٠٤ عن وجهتها الأصلية الشرق الإسلامي إلي بيزنطة ، وإنما كانت البندقية

٣ - كانت العناصر البشناقية تقطن بجوار إقليم خرسون ، وفي حال عدم وفاقهم مع الإمبراطورية فإنهم يقومون بأعمال السلب والنهب ضدها ، الإمبراطور قنسطنطين السابع : إدارة الإمبراطورية البيزنطية ، عرض وتحليل وتعليق ، د. محمود سعيد عمران ،بيروت ١٩٨٠ ، ص٥٤ .

وراء ذلك. وكانت المصالح البندقية هي التي كرست التفتيت السياسي للإمبراطورية البيزنطية عقب تلك الحملة مباشرة.

أما في الشرق، وحتى انقراض الإمبراطورية الساسانية علي أيدي جيوش المسلمين فيما بين عامي ٦٣٠،٦٤٠ ، فإن الدولة الفارسية كانت الخصم الرئيسي للإمبراطورية الرومانية في الشرق . وفيما بعد كان الأمويون (٦٦١ــ ٧٥٠) والعباسيون (٧٥١ ـ ١٢٥٨) وقد مثل الخلفاء تهديدا دائما للإمبراطورية . ويمكننا أن نميز عدة أطوار مختلفة مر بها ذلك التاريخ: الفترة من ٦٥٠ ـ٧٢٠ كانت الغزوات العربية الإسلامية في ظاهرها عادية تهدف إلي تدمير الدولة الرومانية الشرقية ، ومن ٧٢٠ـ ٧٥٠ حدث نوع من التعايش السلمي المؤقت modus vivendi [٤]، ولكن بقي المسلمين خلالها مصدر دائم لعرقلة الاقتصاد والسياسة . ثم فيما تلا ذلك وحتى منتصف القرن الحادي عشر ـ حيث انهيار وتمزق السلطة العباسية ـ وفيها أمكن بسهولة إعادة بناء النفوذ وتحقيق الأسبقية في المنطقة . في الوقت الذي تزايد فيه دور الأتراك والجند المرتزقة في التدخل في شئون الخلافة عام ٨٤٠ ، ثم الوصول الفعلي للأتراك السلاجقة عام ١٠٥٠ والذي كان بمثابة تغيير قسري للصورة القائمة . وعملت الانشقاقات السياسية الداخلية جنبا إلي جنب مع الهزيمة العسكرية علي يد السلطان السلجوقي ألب أرسلان في شرق الأناضول عام ١٠٧١ (معركة مانزكرت ، ملاذجرد الحالية) علي خسارة وسط آسيا الصغرى ، والتي أضحت منذ ذلك الحين فصاعدا تحت هيمنة جماعات البدو الرعاة من الأتراك المعروفين بالتركمان (Turkmen) والذين شكلوا تهديدا دائما لكل المقيمين بالمنطقة. ومما زاد الأمر خطورة قيام سلسلة من الإمارات التركية مما جعل استرجاع الإقليم أمرا عسيرا. وأخيرا كان قيام حكم الأسرة العثمانية ـ العثمانيون ـ مع أخريات القرن الثالث عشر ، أكبر مؤشر علي موات الإمبراطورية الرومانية الشرقية.

لقد كان عالم بيزنطة السياسي معقدا، متعدد الأوجه. وكانت الحكومة في القسطنطينية بحاجة إلي إدارة نظام استخباراتي كفء. وقد اعتمدت علي الدبلوماسية والتحالفات والهدايا والاستخدام الحذر للمعلومات. ولكن عندما تفشل في ذلك، وغالبا ما حدث، فإنها تلجأ إلي استخدام القوة. وكانت الجيوش الإمبراطورية هي الأداة الحاسمة في مواجهة الأعداء. بعقيدتها القتالية وطرقها الحربية. كانت تلك هي النغمة السائدة في هذا الفصل.

---

٤ – modus vivendi تعني توافق بين طرفين مختلفين في الرأي . modus تعني طريقة vivendi تعني للحياة وتعني العبارة فرض طريقة حياة بين طرفين مختلفين ربما لإحداث توازن في معادلة القوي من أجل استمرارية الأمور . المترجم . والترجمة المناسبة للسياق هي تعايش سلمي مؤقت أنظر ، هسي : العالم البيزنطي ، ترجمة وتقديم وتعليق د. رأفت عبد الحميد ، دار المعارف ١٩٨٤ ، ص ١٢٥ .

اندلاع

"لماذا وكيف خاضت بيزنطة الحروب"

أدرك القادة والحكام البيزنطيون تماما العلاقة بين توزع وإعادة توزيع الموارد ـ جند ، مؤن، معدات، دواب وما إلي ذلك ـ وبين قدرة الدولة في صد أي عمل عدواني، والانقضاض علي المعتدين. وأوضحت الكتيبات العسكرية والدراسات، التي كتبت فيما بين القرنين السادس والثامن الميلاديين، أن عدم التوازن في الموارد بين بيزنطة وأعدائها كان معترفا به بشكل بين. وقد نصح القادة بعدم خوض حرب في ظل ظروف غير مواتية، لأن ذلك ربما قاد إلي خسارة في الأرواح والموارد. وكانت النغمة السائدة في تلك الكتابات، هي ضرورة أن تلجأ بيزنطة إلي المناورة واستخدام تكتيكات معرقلة، والكمائن، وحيل إستراتيجية من هذا القبيل. غير أنه من الواضح أن هدف الحرب هو النصر دون الاضطرار لخوض معركة حاسمة. إن النصر يمكن تحقيقه من خلال التكتيكات المعوقة، والاستغلال الذكي لنقاط ضعف العدو، وأرض المعركة، والعوامل الموسمية، والدبلوماسية.

كانت الحرب مكلفة ـ بالنسبة لدولة تعتمد في معظم دخلها علي ما يوفره الإنتاج الزراعي، والذي ظل ثابتا وربما تعرض لكوارث من قبل الطبيعة أو صنع الإنسان ـ وعلي الدولة تحاشيها قدر الإمكان.

عامل آخر شغل الفكر العسكري البيزنطي، وهو لصيق بالعامل السابق، ألا وهو القوة البشرية. وكانت القوة البشرية تفوق العد. وعلي الإستراتيجية مثلها في ذلك مثل الدبلوماسية أن تأخذ ذلك العامل في الحسبان عند التعامل مع العدو. أحد الوسائل لمعادلة التوازن هو تقليص القوة البشرية للعدو ـ استنزاف قواته حتى لا يبقي طويلا في الميدان، تحطيم أو إزالة ما يمكن إزالته من مصادر التموين والإمداد ، تسريب معلومات مضللة عن نوايا الجيش البيزنطي. كانت تلك هي كل الوسائل التي رشحتها الدراسات العسكرية. ويمكن القول أن تحاشي القتال كان محور الارتكاز في الإستراتيجية البيزنطية، ولعله كان يفيد في تعرض جند الأعداء لأمراض، في الوقت الذي يحرم فيه الجند من مصادر المياه والتموين وما شابه. كان الدفاع إذن محور الاهتمام الأول عند الحكام والقادة البيزنطيون.

كانت الأمور الحربية البيزنطية تدار وفق أسس راسخة، ومنطقية محسوبة. والهدف الرئيسي هو تأمين بقاء الإمبراطورية وفق إستراتيجية تتيح استغلالا أمثل للموارد المتاحة والمحدودة نسبيا. لقد كانت الضرورة إذن وراء توجهات بيزنطة الدفاعية. وقد لاحظ زائر إيطالي في

منتصف القرن العاشر، وهو السفير ليتوبراند من كريمونا الاحتياطات المتبعة لتأمين القسطنطينية ليلا في حال ما تعرضت لهجوم معادي غير متوقع.

أن التأكيد الذي رسخه الكتاب البيزنطيون والحكومة حول الدبلوماسية الذكية والفاعلة ليس فقط مسألة أولوية ثقافية نبعت من كراهية المسيحي لسفك الدماء ـ علي العكس من ذلك فإن استمرار بقاء الدولة اعتمد علي ترسانة من الدبلوماسية الواسعة الانتشار. ويعكس ذلك معظم تاريخ العلاقات الدبلوماسية الخارجية سواء الجانب النظري منها أو العملي. ولا يغرب عن البال أن للدبلوماسية حدها العسكري. كما أن العلاقات الجيدة مع مختلف شعوب السهوب كانت ضرورية لأجل المصالح البيزنطية في البلقان والقوقاز. ويمكن القول بسبب تلك العلاقات الجيدة، إن أي تواجد للسلاح بها سيوجه إلي أعداء الإمبراطورية. كما أن مثل تلك العلاقات كانت جوهرية كمصدر للمعلومات. وبالطبع فإن جهودا كثيرة كانت تبذل لكل ما يتعلق بأمن الإمبراطورية.

نادراً ما كان الذهاب للحرب نتيجة اختيار مسبق للإمبراطور أو مستشاريه، ذلك أن الإمبراطورية كانت في حالة تهديد دائم من جهة أو أخري، و بالتالي فهي في حالة تأهب عسكري متواصل. ولم يعد الفرق بين الحرب والسلام هو حالة الدولة ككل بالنسبة لقوة جيرانها فحسب، بل صار كذلك حسب الموقع الذي قد يجد المرء نفسه فيه من أرجاء الإمبراطورية. وبينما كانت فكرة استرداد المناطق السابقة حاضرة دوما في الذهن، فإن جهود فرضها عكست حلا محددا كرد فعل لميزة غير مرئية تحققت من خلال المعارك واستغلال الظروف المواتية. والواقع إن احتمال استرداد المناطق المفقودة كان أمرا عسير المنال. لقد كانت الإستراتيجية تتحدد وفقا للتفاعل بين الموارد والمعتقدات السياسية. ويصقلها الاستشراف العملي للأمور.

وكانت معظم الحروب البيزنطية تقوم لا علي توجيه ضربة تحت الحزام للعدو، ولكن علي أساس محاولة بلوغ أو التمسك بحالة من التكافؤ أو التوازن. ولعل أعضاء الحكومة ورجال البلاط تقاسموا أفكارا فيما يخص العلاقة بالعالم الخارجي، لكن الأوضاع الإستراتيجية لجيش الإمبراطورية الرومانية المتأخرة والبيزنطية لم تكن ترتب وفقا لتلك الأفكار. فقد كانت الموارد ـ لأسباب معروفة ـ تمثل حجر الزاوية في الفكر الإستراتيجي، فالجيش لا يمكنه القتال دون موارد كافية، ومعدات، وتدريب، وثكنات. غير أن الحرب لم تكن لتدار بالضرورة بمحض أفكار متميزة، حيث يلعب التفوق الأيديولوجي دورا هاما في تصورهم لهويتهم وترتيب الأولويات، كما لم تكن لتدار وفق إستراتيجية طويلة الأمد. ولكن بعض الوسائل لضرب العدو كانت تحمل قيمة إستراتيجية، إن هجمات ضد حصون العدو المنيعة ذات القيمة، أو ضد المدن كانت

تشن من قبل كل حكام العصور الوسطي إما في وقت واحد أو أوقات متفرقة. وكان لها أهميتها الدعائية، والتي تزايدت مع تزايد مستوي الأخلاقيات. كانت ذات قيمة معنوية أكبر من أي مكاسب مادية حقيقية.

وبنفس المفهوم، كانت بعض ساحات القتال ـ من الناحية الأيديولوجية ـ أفضل من غيرها. إن محاربة البرابرة في البلقان وشمال الدانوب كانت تعتبر أقل قيمة وأقل مجدا بالنسبة لمحاربة أعداء الدين المسلمين في الشرق. كما ذكر ذلك أحد كتاب القرن الحادي عشر " لا يبدو أن هناك شيئا أعظم من محاربة البرابرة في الغرب سوي ما قام به (الإمبراطور رومانوس الثالث) والذي استدار إليهم في الشرق (المسلمون) حيث اعتقد أنه يمكن أن يحرز المجد ".

ولا توجد أدلة علي أن الحرب كانت تشن للحصول علي موارد قد يعاد نشرها بشكل متماسك وفق إستراتيجية عالية، فيما عدا تلك المناطق التي عرفت بثرائها ، ولا شك أن تلك المناطق كانت مطمعا في حد ذاتها . كانت الحرب تدار علي أساس توجيه ضربة شديدة التدمير لاقتصاد العدو ، وللبني التحتية وقتل الناس أو استعبادهم ، وكذلك تدمير الحصون ، والمناطق الحضرية والريفية . ولا يغيب عن البال ، أنه كانت هناك معايير متعادلة للحماية يتخذها كلا من الجانبين . و مع منتصف القرن العاشر ، طورت بيزنطة كل المظاهر الحربية بحرفية عالية .

كانت حروب بيزنطة ـ التي جرت بشكل فعال ـ سواء مع العرب في شرق البلاد أو ضد السلاف والبلغار في الغرب ،فيما بين القرنين السابع والعاشر ، تقوم علي أساس حرب استنزاف . ولا يعني ذلك غياب هدف استراتيجي طويل الأمد ، أو باعث خفي في هذا الصدد. بل علي العكس من ذلك ؛ لدينا فيما جري من تسارع وتيرة التوسع شرقا خلال القرن العاشر، والذي خفت حدته فيما بعد ، مثال علي ذلك . ويرتبط بذلك المثال ارتباطا وثيقا ما تم من غزو بلغاريا في عهد باسيل الثاني . ففي الحالة الأولي خلال الهجوم الإمبراطوري علي الأقلية من القوي الإسلامية في سوريا والجزيرة ، كان من الواضح أن الاهتمام الأول هو دعم قوة المناطق الإمبراطورية هناك . وفي الحالة الثانية ـ وبتحفيز مما تحقق من تطور في الأولي ـ كان الدافع إيجاد قواعد جديدة للموارد للأباطرة وحكومة القسطنطينية ، واستغلال نفوذ القوي الشرقية ،وإن جاء ذلك في سياق القرار العملي بالقضاء علي خطر التهديدات البلغارية ، وإعادة تأكيد الهيمنة الإمبراطورية علي أرجاء البلقان . وتعكس الحقائق التي خلفتهما كلتا الحالتان بوضوح شكل الأزمة في داخل الدولة والمجتمع البيزنطي، وتوضحان بشكل خاص وفي نفس الوقت مدي ما يمكن أن ينعكس نتيجة السياسات والإستراتيجية علي العلاقة بين الدولة والمجتمع ككل.

ونادراً جدا ما كانت تشن الحرب لأسباب إيديولوجية فقط. ومن الواضح أنه مـن الممكـن إضفاء الشرعية علي كل الحروب الدفاعية علي خلفيات مثل : التهديد للأراضي الإمبراطوريـة وسكانها ، تحدي حاكم مسيحي ، حاكم عين من قبل الرب ،إمبراطـور القسـطنطينية ، وتحـدي السيادة الرومانية . وأشياء من هذا القبيـل . لم تكـن هنـاك صـعوبة كـبيرة لـدي الإمبراطوريـة الرومانية المسيحية في تبرير الحرب الهجومية أو العدوان. بل كان يحدث ذلك عن طيب خـاطر . ولا ريب أن الدفاع كان العنصـر المسيطر علـي الفكـر العسـكري للإمبراطوريـة عـبر تاريخهـا الطويل. وكان ذلك ضروريا من منظور وضعها الإستراتيجي. وأيا ما كانـت حقيقـة التفاصـيل والإجراءات السياسية والتاريخيـة لاضـمحلال الإمبراطوريـة فيمـا بعـد ١٢٠٤ ، فـإن الـزوال التدريجي للإمبراطورية تزامن مع انخفاض قدرتها علي حشد الموارد اللازمة للدفاع عن نفسها . لقد كانت الإستراتيجية الفعلية هـي رد الفعـل تجـاه الأحـداث الـدائرة مـن حولهـا والتراخـي السياسي والفكري داخل الإمبراطورية الرومانية المسيحية.

الحروب الدفاعية:

يمكن تصنيف الحروب بصـورة مجملـة إلـي قسـمين رئيسـيين : حـروب دفاعيـة وحـروب هجوميـة . مـع ذلـك يجـب القـول في السـياق ذاتـه ، أن الهجـوم المسـبق يمكـن أن يصـنف في المجموعتين وهو بالتالي عمل مشروع . ويأخذ القتـال الـدفاعي أشـكال منهـا ، تكتيـك حـرب العصابات في مواجهة الغزاة المعتدين ، والمواجهة الشاملة بين الجيوش الميدانية ، وتعقبهـا عـادة فترة من مناورات علي كلا الجانبين ، حيث يحاول كل منهما التفـوق علـي الآخـر . أو تشـمل الشكلين معا . ولقد اتخذت الحروب الدفاعية ضد جيوش المسلمين الأوائل هذا الطابع . حيـث كانت القوات الإمبراطورية تحاول الموازنة مـع مـا كـان عليـه الفـاتحين المسـلمين والـذين كـان بمقدورهم بالحماسة والسرعة حرمان القادة الرومان من أخـذ زمـام المبـادرة لـيس فقـط بسـبب حركتهم السريعة وتكتيك الضربة الساحقة ، ولكن أيضا نمط الحرب التي يمارسونها ، مما يفقـد أي جبهة قدرتها الدفاعية.

بدل الفتح الإسلامي جذريا الإستراتيجية والجغرافيا السياسية لكل منطقة شرق المتوسـط ، وكان الفشل الذريع لمحاولات لقاء العدو ودحره في معركة مفتوحة سببا للبحث عن إستراتيجية مغايرة تماماً. لقد صار أمرا مؤكدا تجنب المواجهة مع جيوش المسلمين . ولقد تراجعت الجيوش البيزنطية أولا إلي شمال سوريا ، والجزيـرة ، وبعـد قليـل إلـي طـوروس وممراتهـا الدفاعيـة. وبمنتصف سنة ٦٤٠ واصـلت الجيـوش العاملـة في سـوريا والجزيـرة مـن قبـل انسـحابها إلـي الأناضول وهي المناطق التي يمكن أن يتخذوا مواقعهم فيها وفقا لمقـدرة المنطقـة علـي إمـدادهم بالموارد والمتطلبات الأخرى . لقد تمركزت القوات الميدانيـة في آسـيا الصـغرى ، وتراقيـا . كمـا

أشاروا إلي مواقعهم هناك بالمصطلح اليوناني Themata أو Themes الثغر . كـان الغـرض من وراء ذلك التوزيع هو مواجهة المطالب اللوجستية بتزويد كل جيش بالعمق الدفاعي خلفـه بتوفير منطقة يمكن من خلالها دعمه لمواجهة احتياجات الدفاع الإستراتيجية.

كانت تلك إستراتيجية دفاعية محضة ، مع ما تعنيه من تعـرض اقتصـاد المنـاطق فيمـا وراء الجبهة من خراب مادي ودمار . وقاد ذلك إلي ظهور مناطق علي الجانبين هي مناطق عازلة بلا بشر أو نشاط إنساني سنة ٧٠٠ . ولم تمنع الترتيبات الجديدة العرب من إنشاء قواعد متقدمة لهم في آسيا الصغرى . كانت الثغور في البداية مجرد تجمعـات إقليميـة تتمركـز فيهـا قـوات الجـيش المختلفة ، وفي سنة ٧٣٠ أو حوالي ذلك الوقت صار لها هوية جغرافيـة واضـحة . وأقيمـت ـ علي خلفية الوجود الإداري الحربي ـ إدارات مالية في الثغـور. بينمـا اسـتمر تواجـد التقسـيم الإداري للأقاليم السابقة . ونتيجة لتحسن الأوضاع الاقتصادية والسياسية للإمبراطوريـة تزايـد عدد الثغور . فقد تم تقسيم الأقاليم العسـكرية الأصـلية إلـي أقسـام جديـدة ، كمـا تم تقسـيم الأقاليم المستردة في البلقان والتي أعيدت للسلطة الإمبراطورية في أخريات القرن الثـامن . أدت تلك الترتيبات من تمركز المتطوعين والهويات العسكرية الناجمـة عنهـا إلـي التفرقـة بـين الجنـود النظاميين العاديين والأقل كفاءة والجند المزودون جيدا مثل العناصر في كل مناطق الثغور.

وقد أسست قـوة مختـارة صـغيرة في سـنة ٧٦٠ عرفـت باسـم التاجماتـا (الفـوج) بقيـادة قنسطنطين الرابع (٧٤١ـ ٧٧٥) وسرعان ما انخرطت ضمن تقسيم النخبة الميدانية للأغـراض القتالية . وكانت تحظي برعاية خاصة حيث يدفع لها بشكل جيـد . كمـا تمتعـت بانضـباط عـال أكثر من كل الوحدات الأخرى العادية أو الموسمية في الأقـاليم . كانـت تلـك الخطـوة الأولـي باتجـاه تشـكيل قـوات خاصـة تخـدم في حـرب خاصـة أو عـدة حـروب. ومـع تعـافي القـوة الإمبراطورية في القرنين التاسع والعاشر ، فإنها أعادت تأكيـد نفوذهـا في الشـرق . وصـار دور تلك الوحدات الدائمة أكثر أهمية.

كانت الإستراتيجية الدفاعية تتحدد بعدة عناصر ، أولها مواجهـة القـوات المهاجمـة لوقفهـا وإرجاعها عند طوروس ، أو الممرات المقابلة لهـا قـدر الإمكـان . ولأن هـذه السياسـة في لقـاء العدو وصده لم تفلح ، فإن قوات محلية كان عليهـا اسـتنزاف العـدو واقتفـاء أثـر كـل حركـة ، وموضع كل فرقة. كذلك أقيمت المعاقل والحصون الصغيرة بطول الطريق الرئيسية . وقد اختير لها إما مفترقات الطرق ، أو حيث توافر الإمدادات ، وكذلك حيث الممرات المتاخمة والـتي قـد تضطر القوات المعادية إلي اللجوء إليها .و بها تتمركز القوات المحلية . وعلي الرغم من أن تلك النقاط كانت مكشوفة للعدو ، إلا أنها كانت بمثابة تهديد دائـم للقـوات الغازيـة . إلـي جانـب

ذلك، شيدت في القرن الثامن نقاط متقدمة بطول الحدود ، لها قياداتها الخاصة المستقلة ، وتـتمم عمل الثغور وتعرف باسم Kleisourarchiai وهي تأكيد للنمط الدفاعي المحلي.

ولقد عانت الإمبراطورية في الفترة المبكرة من هزائم متعددة ، ولكنها أحرزت أيضا بعـض الانتصـارات السـاحقة ، خاصـة عنـدما أمكنهـا تعقـب الغـزاة . إلـي جانـب تواجـد الجـيش الإمبراطوري في الوقت والمكان المناسبين . وأظهرت المواجهات أنـه يمكـن نجـاح الإسـتراتيجية التي اتبعتها القوات الإمبراطورية عندما تتوافر لها قيادة متميزة ، ومعلومات مناسبة عن تحركات العدو . لكن الحرب في الشـرق عمومـا كانـت صـراعا بـين قـوتين متكـافئتين . ففـي الجانـب الإمبراطوري ميزة الجغرافيا والاتصال يعادلها في جانب الخلافة التفـوق العـددي . ومـع توجـه الإمبراطورية إلي الهجوم في القرن العاشر ، تغيرت الصورة حيث أصبحت الترتيبـات الدفاعيـة بلا جدوى . وعندما تغير موقف الإمبراطورية إلي الأسوأ نتيجة لظهور حشود جديـدة معاديـة منذ سنة ١٠٤٠ وما تلاها ونتيجة لـنقص بينـة دفاعـات مـؤثرة وعميقـة ، ممـا سمـح للأتـراك السلاجقة في غزو آسيا الصغرى والاستيلاء عليها بصفة دائمة بعد مـانزكرت سـنة ١٠٧١ دون مقاومة فاعلة . ولم تتمكن الإمبراطورية من استعادة سيطرتها علي الإقليم .

وقد اعتمد أحد جوانب الإستراتيجية الإمبراطورية في الأسـاس علـي توجيـه ضـربة إلـي الأعـداء المجـاورين تهـدف إلـي الاحتـواء ، أو إلـي التأكيـد علـي قـوة العقيـدة العسـكرية للإمبراطورية.غير أن بعض الهجمات كانت ناجحة والبعض الآخر جاء أقل نجاحا . ومن بـين سلسلة الخسائر في تاريخ الإمبراطورية الهجوم ضد البلغار الذي شنه الإمبراطـور نقفـور الأول سنة ٨١١. والذي انتهي بمقتل الإمبراطور ، ودحر القوات الإمبراطورية .

كان نقفور وزيرا للمالية لدي الإمبراطورة أيرين قبل اعتلائـه العـرش في ٨٠٢ م ، وبـدت لديه الرغبة في هزيمة البلغار وبالتالي استعادة الخانية البلغارية ألي أملاك الإمبراطوريـة وبلغـت حملة سنة ٨٠٩ شمال شرق بلغاريا حيث العاصمة باليسكا وقامت بنهبها . بينمـا هـدفت حملـة ٨١١ إلي تأكيد التواجد الدائم للرومان في الإقليم . أمر نقفور بتشكيل ضخم من القـوات مـن آسيا الصغرى مدعما بقوات من الثغر الأوربي ، ووحدات الحرس الإمبراطوري التاجماتا . كان مظهرا احتفاليا شمل كل الحملة ، حيث اكتسب الإمبراطـور ثقـة زائـدة مـن الانتصـار السـهل الذي حققه سنة ٨٠٩ ، ورافقـه في الحملـة أعـدادا كـبيرة مـن رجـال الـبلاط ، والمسـئولون في القصر. لكن القوات استدرجت إلي كمين ، حيث دحرهم البلغار في هجوم ليلي .

وكانت الهزيمة واحدة من أسوأ ما مر في تاريخ الإمبراطورية من هـزائم[١] . ولا تقـل سـوءا عن هزيمة أدريانوبل سنة ٣٧٨، والتي لقي فيها الإمبراطور فالنز حتفه في حربـه مـع القـوط [٢]. وصار خان البلغار أكثر الأعداء خطرا الذين كان علـي الإمبراطوريـة مـواجهتهم في السـنوات القادمة . وكان قادرا علي محاصرة القسطنطينية ذاتها في سنة ٨١٣.

الحرب الهجومية:

عرضنا فيما سبق للمشاكل التي اعترضت الإستراتيجية الإمبراطورية ، إن معظـم الحـروب يمكن تبريرها بطريق أو بآخر علي أنها دفاعية حتى وإن بدا واضحا فيها الدافع الهجومي . مثـل تلك الحروب التي شنت في أخريات القرن العاشر وبداية الحادي عشـر ضـد البلغـار والـروس علي سبيل المثال عندما كان مسوغ الحرب عبارة عن رفض لكل من الاتفاقيـة والترتيبـات الـتي رأي فيها الإمبراطور عملا مشينا . كما أن التهديد الذي مثله البلغار ضد الأراضي البيزنطية في تراقيا وانهماك الروس في ذلك لم يعد مقبولا بعد الغزو البيزنطي لجزر كريت وقبرص وصـقلية في جنوب أسيا الصغرى وضمهم إلي أملاك الإمبراطورية .

وأيا ما كان الأمر ، فقد وصل رسل قيصر البلغار ، لطلب الإتاوة أو الجزية ، الـتي تـدفعها القسطنطينية للقيصر كجزء من ضمان السلام القائم بينهما منذ وفـاة القيصـر سـيميون في سـنة ٩٢٧ غير أن وضع الإمبراطورية كان مختلفا عما كان عليـه الحـال عنـد توقيـع الاتفاقيـة (٣). وأبدي نقفور الثاني فوقاس (٩٦٣ ـ ٩٦٩) امتعاضه مما يمثله مطلب البلغار من تطاول وانتهاك لحرمة الإمبراطورية. وقد أرسل الرسل إلي بلادهم مصحوبين بالخزي ، وبدلا من الـدفع دفـع

---

١ – كان غرض نقفور من تلك الحملة إلي جانب تأكيد نفوذ الإمبراطورية في الإقليم هو تأديب البلغار بعد أن زاد خطرهم وقيامهم بالإغارة علي بعض المراكز البيزنطية بتراقيا وقد أحدثوا بها مذابح بشرية بشعة علي يد ملكهم كروم وازدياد ذلك الخطر البلغاري خاصة عام ٨١١ مما دفع الإمبراطور نقفور أن يخرج بنفسه لمحاربتهم وتقدم نحو العاصمة البلغارية دون مقاومة، وعند ذلك طلب منه كروم الصلح إلا أن الإمبراطور لم يستجب وتقدم فدخل العاصمة واستولي علي خزائن الملك وأشعل النار بالقصور الملكية عاود كروم توسلاته لعقد الصلح وتمادي نقفور في تدمير مملكة البلغار وحين بدأ يتتبعهم في الجبال التي لجأوا إليها باغت كروم وجيشه الإمبراطور فمزقوا البيزنطيين شر ممزق ، ولقي الإمبراطور حتفه وجرح ابنه الذي لحق به بعد عدة أشهر . أنظر ، محمد مرسي الشيخ : تاريخ الدولة البيزنطية ، الإسكندرية ١٩٩٤، ص ١٥١– ١٥٢.

٢ – طلب القوط الغربيون من الإمبراطور فالنز ٣٦٤ ـ ٣٧٨ أمام ضغط الهون عليهم وفرارهم منهم أن يسمح لهم بعبور نهر الدانوب للنجاة من خطرهم ، وقد وافق الإمبراطور علي عبورهم وسمح لهم بالإقامة في مواشيا وتراقيا ، غير أنهم ما لبثوا أن ثاروا عليه ، وذبحوه في معركة أدريانوبل. سعيد عاشور أوربا العصور الوسطي ، ج ١ ، القاهرة ١٩٧٦ ، ص٦٧.

٣ – أرسل الإمبراطور ليو الرابع ٨٨٦ ـ ٩١٢ مبعوثه ليو كورسفاكتس Leo Choersphactes ربما في عام ٨٩٧ للتفاوض بشأن معاهدة مع سيمون قيصر البلغار وطبقا لتلك المعاهدة قبل الإمبراطور دفع اتاوة سنوية لسيمون وتم أيضا افتداء كثير من الأسري البيزنطيون . للمزيد أنظر:

Stephenson، Paul : Byzantium Balkan Frontier، England 2000،p. 21.

بقوة صغيرة لتدمير عدد من الحصون البلغارية ، والمواقع المنيعة المتقدمة ثم دعا روس كييف حلفائه في الشمال لمهاجمة البلغار من الخلف . كان إقليم السهوب الممتد من سهل المجر باتجاه الشرق عبر جنوب روسيا وشمال القوقاز محط اهتمام الدبلوماسية الإمبراطورية ، موطنا لكثير من الشعوب البدوية وأغلبهم من أصول تركية . وكان أمرا هاما إبقاء هؤلاء في وضع حسن تجاه الإمبراطورية . وقد تمكنت القسطنطينية من إقامة علاقات طيبة مع الخزر منذ سنة ٦٣٠ وكان خاناتهم حلفاء مخلصين للأباطرة البيزنطيين . لقد كانوا قيمة إستراتيجية فكثيرا ـ علي سبيل المثال ـ ما دعوا لمهاجمة البلغار من الشمال ، ويقومون بالضغط عليهم في لحظات الأزمة . كما أبقوا الإمبراطورية علي علم بما يدور في الشرق في آسيا الصغرى . لكن حجم إمبراطورية الخزر تناقص خلال القرن التاسع أمام حركة شعوب عدة و الناجمة عن توسع الترك البشناق الذين أقاموا أنفسهم في إقليم السهوب بين الدانوب والدون .

وكان علي الإمبراطورية أن تتبع نفس السياسة مع البشناق والذين كانت قيمتهم كما اتضح في مواجهة الروس والبلغار ظاهرة ، إلا أنهم كانوا حليفا خطرا . كان الروس خليطا من المستوطنين والمحاربين الاسكندينافيون مع الأهليين من الشعوب السلافية المقيمة علي طول الأنهار الوسطي والغربية من روسيا ، وخلال القرن التاسع تزايدت جموعهم ليصبحوا قوة سياسية هامة وفيما بين سنتي ٨٥٠ و٨٦٠ دخلت سفنهم إلي البحر الأسود . وفي بدايات القرن العاشر ، وبعد بعض الأعمال العدائية ، وقعوا مع الإمبراطورية اتفاقيات للتجارة . وقد تطورت تلك العلاقة منذ القرن العاشر لذا عندما طلب نقفور الثاني عونهم في ٩٦٦ فسرعان ما استجاب أميرهم المقاتل الطموح سفياتوسلاف الذي كان متشوقا للموافقة . ووصل في سنة ٩٦٨ إلي الدانوب وهزم في سهولة القوات البلغارية المرسلة لمواجهته. وفي سنة ٩٦٩ اضطر إلي العودة إلي كييف ليصد هجوما للبشناق ثم عاد فيما بعد واحتل بشكل سريع شمال وشرق بلغاريا وعزل القيصر Boris 11 وضم بلغاريا لنفوذه . لم يكن ذلك ضمن خطة الإمبراطور الأصلية ، وفشلت المحاولة لإقامة تحالف مع البلغار المهزومين . ومع اقتراب سنة ٩٦٩ من نهايته اغتيل الإمبراطور ، وكان علي خلفه حنا الأول زيمسكس مواجهة المهمة الصعبة في إزاحة هذا العدو الخطير للغاية . وقد رأي بعض نبلاء البلغار الفرصة سانحة للعمل مع الروس من أجل الاستقلال عن الدولة البيزنطية وثقافتها .

أدرك سفياتوسلاف ضرورة العمل بسرعة، فقام بإرسال إنذار نهائي للإمبراطور بإخلاء الأقاليم الأوربية وقصر الإمبراطورية علي الأقاليم الآسيوية . وفي ربيع سنة٩٧٠ غزت قوات روسية ضخمة إقليم تراقيا ونهبت حصون فيلبوبوليس (بلوفديف الحالية) وتحركت باتجاه القسطنطينية . ونشبت حرب خاضها حشد ضخم من الجيش الإمبراطوري وكان التكتيك

المعرقل لصرف وتحويل موارد العدو ، وأخيرا الهزيمة الكاملة للروس وعودة سفياتوسلاف إلي بلاده غير أنه قتل وهو في طريقه إلي هناك علي يد البشناق.

كانت تلك حرب ناجمة عن رفض حكام الإمبراطورية لاتفاق مذل لا يتفق مع وضعهم تم مع جار أدني مكانة ، لكن سرعان ما تحول إلي عدو خطير ، والنتيجة كانت من جانب واحد هي دمج الأجزاء الرئيسية شرق بلغاريا وحتى الدانوب إلي أراضي الإمبراطورية . ومن ناحية أخري شجع الانتصار البيزنطي علي تطور الحركة الاستقلالية ونموها في سنتي ٩٧٠ و ٩٨٠ وظهور إمبراطورية بلغارية جديدة بقيادة القيصر صمويل ولتكون أكبر تهديد خارجي للإمبراطورية البيزنطية حتى أوائل القرن الحادي عشر.

ونتيجة لحملات الإمبراطور باسيل الثاني التي لا تعرف الكلل بلغ سنام النصر النهائي سنة ١٠١٤، واستعاد بالكامل كل الأراضي التي كانت بحوزة الإمبراطورية في البلقان وصعودا باتجاه الدانوب ، وصنع السلام . وصارت كل البلقان ـ مرة أخري ـ من وجهة عسكرية وسيطرة سياسية أرضا رومانية بالكامل [٤].

وقد حدث تحول كبير في الإستراتيجية بعد الانتصارات في البلقان وضد القوي الإسلامية في الشرق. لقد كان تأسيس نظام الدول المتحالفة والفاصلة قد جعل الإبقاء علي قوي حربية جاهزة أمرا مكلفا ، مما شكل استنزافا كبيرا للخزانة بلا ضرورة كبيرة . كان للتأثير الثقافي والاقتصادي دورهما إلي جانب التهديد بعمل عسكري في الحفاظ علي السلام في كل الدانوب. وبالتالي طبقت سياسات مماثلة في الشرق .

ولقد واصل الأباطرة سياسة خارجية ألقت جل اعتمادها علي الأتباع وقوي الجيران في الإمداد العسكري ، وبذا قل الاعتماد علي مصادر الإمبراطورية ذاتها . غير أن هذه الإستراتيجية انهارت في سنة ١٠٤٠ وما تلاه ويعزو ذلك بشكل كبير إلي أن التوازن بين الدبلوماسية والقوة الحربية كان قد انهار بقيام الحرب الأهلية والتمرد الإقليمي عكس تطور هام في البنية الاجتماعية والسياسية للإمبراطورية.

لقد أهملت قوات الأقاليم والثغور لصالح الجند الدائمين التاجماتا. وكانوا يخوضون جيدا أي شكل من أشكال الحرب الهجومية شنها الإمبراطور خلال سنة ٩٥٠ بينما شجع تضاؤل الميزانية الحربية الاعتماد بشكل كبير علي قوات مرتزقة أجنبية خاصة الفرسان الغربيون من الفرنجة والجرمان والنورمان.

---

٤ – شن الإمبراطور باسيل الثاني حملات عنيفة علي البلغار استمرت سبعة عشر عاما (١٠٠١ – ١٠١٨)، ونتيجة لأعماله الحربية تلك أصبحت المملكة البلغارية جزءا من الإمبراطورية البيزنطية ، وتم تقسيمها إلي منطقتين : باريستريون وبلغاريا . أنظر هسي : المرجع السابق ، ص ١٤٩.

ولقد عاني جيشا مكونا من مثل هذا الخليط من فرق أجنبية وبيزنطية بقيادة الإمبراطور رومانوس الرابع ديوجينوس من هزيمة سنة ١٠٧١علي يد الغزاة الأتراك قرب حصون مانزكرت في آسيا الصغرى ومن وجهة نظر عسكرية محضة فإن تلك الهزيمة ليست كارثية غير أن الفوضى والحرب الأهلية التي تلتها أطلقت يد الغزاة في وسط آسيا الصغرى ، والتي لم يتم استرجاعها بالكامل مرة أخري.

ولقد قضي الأباطرة الذين خلفوا الكسيوس الأول الفترة من ١٠٨٠ ــ١١٨٠ في محاولة لاستعادة الوضع لكنهم لم يحققوا أي نجاح . وشهدت حروب تلك الفترة تزايدا لاستخدام التكتيك الغربي بعناصر بيزنطية واضحة أو رومانية شرقية. ولقد قضي الأباطرة الذين خلفوا الكسيوس الأول الفترة من ١٠٨٠ــ١١٨٠ في محاولة لاستعادة الوضع لكنهم لم يحققوا أي نجاح. وشهدت حروب تلك الفترة تزايدا لاستخدام التكتيك الغربي بعناصر تكتيكية بيزنطية واضحة أو رومانية شرقية . وقد لاحظ المعاصرون استمرار الانضباط والنظام ضمن العناصر المتعددة الأصول للجيوش البيزنطية التي لا تزال تشارك في القتال.

ولقد خاضت بيزنطة من الناحية العملية الحروب لأسباب كثيرة أهمها تلقيها تهديدات عسكرية لحدودها ، أو لغزو فعلي أو هجوم عدواني تشنه جاراتها ، أيضا لأسباب أيديولوجية وهي حرب ترتكز مشروعيتها علي حماية ما يعرف بالأرض الرومانية التي يمكن استردادها شرعا ، أو التحديات الأيديولوجية من وجهة نظر العالم المسيحي . إن حروب الاسترداد التي شنت في أخريات القرن العاشر كانت تبرر وتحفز علي خلفيات أخري حتى وإن لم تكن في بيزنطة فكرة الحرب المقدسة والتي لم تكن لتتطور.

الإعداد للحرب

"تطور التكتيك القتالي"

شهدت الفترة من القرن السادس وحتى القرن الحادي عشر تغييرات هامة في نظم التكتيك. وقد حدث ذلك مرة أخري منذ أواخر القرن الحادي عشر وحتى الثاني عشر وما بعدهما. وفيما يتعلق بفيالق القرن السادس، فقد كانت مختلفة في تنظيمها وتشكيلها. وظلت الفيالق الأقدم موجودة خلال القرنين الثالث والرابع، حيث قسمت إلي Alae للفرسان يتكون من ٥٠٠ رجل، وفرقة مشاة Cohortes Infantry من ألف رجل.

مع ذلك ففي عهد قنسطنطين (٣٢٤ ـ ٣٣٧) حلت في الغالب محل الأخيرة فرقة مشاة جديدة تدعي Auxilia . كما أنشئت خلال القرنين الثاني والثالث فيالق جديدة تراوح عددها ما بين ١٠٠٠و ١٥٠٠ رجل. ويبدو أن تلك الأعداد طبقت علي الفيالق الأصلية في القرن الرابع. وبغض النظر عن ذلك، فإنه كانت هناك وحدات تدعي Vexillationes وهي في الأصل مختارة من وحدات مختلفة لسبب ما، خلال الفترة من ١٥٠إلي ٢٥٠ م علي وجه التقريب. ثم استمرت بعد ذلك كوحدات قائمة بذاتها . وكان مصطلح Vexillationes يطلق في القرن الرابع علي معظم جنود وحدات الفرسان الجدد في ذلك الوقت. وعلي الرغم من أن بعض تلك الاختلافات التقنية ظلت باقية إلي القرن السادس، فإن التعريف العام لمعظم الوحدات كان كلمة numerus والمقابلة لكلمة arithmos الإغريقية أو Tagma والتي تعني ببساطة وحدة أو عدد (من الجند).

كان علي التكتيكات والإستراتيجية البيزنطية سرعة التلاؤم مع الموقف الذي أعقب الفتوحات الإسلامية في منتصف القرن السابع. وعرفت الجيوش المتواجدة علي طول جبهات القتال باسم kaballarika themata أي سلاح الخيالة الخفيفة وهو ما يعني أن الخيالة بدأت تهيمن علي أرض المعركة في تلك المرحلة والتي انهمكت في مناوشات كثيرة من الكر والفر . وعلي الرغم من استمرار الحاجة إلي المشاة ولعبها دور هام في كثير من الحملات . فقد بدأت أهميتها في التراجع بشكل تدريجي ، ولعل مرجع ذلك إلي أسباب اجتماعية . حيث كان معظم المشاة ينحدرون من أقاليم حربية فقيرة.

أن تطور تكتيك المشاة بعد فترة الفتوحات الإسلامية الأولي. وخلال الفترة من أخريات القرن السابع وإلي القرن التاسع وحتى أوائل العاشر، فإن الاختلافات التي وجدت بين الأنواع المختلفة بين الأنواع المختلفة للمشاة والفرسان كانت تخضع لمستوي عام بعيدا عن الأسلحة المختلفة إلي فرق فرسان خفيفة ومشاة. زودت التاجماتا في القسطنطينية فقط بقوة من الفرسان

الثقيلة. ويبدو أن الضباط المحليين في الأقاليم كان من ضمن مسئولياتهم تشكيل وحدات ميدانية وتسليحها وفقا لمتطلبات كل مناسبة بعينها. ويختلف حجم الوحدات في ميدان القتال وفقا لمتطلبات التكتيك: ويبدو أنه لم يكن هناك عدد محدد للتشكيلات المختلفة مع وجود تصور أدني موصي به لوحدات المشاة الصغيرة ، الباندا، علي سبيل المثال، تدور في مدي لا يقل عن ١٥٠فردًا ولا يزيد عن ٤٠٠.

ويمكن علي سبيل المثال؛ أن تشارك الكتائب في شكل تقسيم مفرد وضخم في الحملات أو العكس بالعكس. معظم الثغور بها اثنتين أو ثلاث من الكتائب ولا يعني ذلك أنها كانت متساوية في الحجم أو يمكن أن تضم نفس العدد من الجنود.

كانت جيوش الأقاليم تشكل علي ما يمكن أن نشير إليه علي أنه ألوية وكتائب وأفواج banda ،Drouggoi،Tourmai ، وكانت الأولي والثانية جزءا من جيش الثغر، أو جند الإقليم. وكان لكل لواء رئاسته أو قاعدته في بلدة محصنة أو أحد الحصون. وكانت الأفواج لها صفتها المحلية الطابع حيث الإقليم الذي يأتي منه المتطوعين. وكان كل قسم أو قائد قسم عنصرا هاما في الإدارة العسكرية لثغره . فهو مسئول عن الحصون والنقاط الحصينة في منطقته . مثلما هو مسئول عن أمن السكان المحليين ومتاجرهم وأمتعتهم . وعلي أية حال ، فإن أكبر مسئولياته قبل منتصف القرن العاشر كانت هي التعامل مع من يهاجمون منطقته ، وإبلاغ قادته بتحركاتهم.

ولقد طور الجيش البيزنطي خلال القرن العاشر كثيرا من تعاليم التكتيك الهجومي . وكانت الأسباب الرئيسية هي حاجته إلي جند متطوعين أكثر احترافا والحاجة إلي العمل بكفاءة، وذلك يتطلب جندا محترفين غير الموسميين الذين توفرهم الثغور . كان التغيير الرئيسي هو ظهور فرق الخيالة الثقيلة والمسلحة بالحراب والسهام والتي تعمل بجدارة إلي جانب المشاة . والتي جودت من القوة الهجومية لخيالة الجيش البيزنطي، مع إحياء قدرة هيئة المشاة الثقيلة المشكلة جيداً. فكان بالإمكان الوقوف بثبات في مواجهة مشاة وفرسان العدو ، والسير مسافات طويلة للعمل الهجومي بعيدا عن قواعدها في داخل مناطق العدو . وفي نفس الوقت ، طور قادة الجيوش تكتيكات ميدانية جديدة بحيث صار لدي القادة قوة لها المرونة والقدرة علي توجيه ضربة ماحقة وتعمل تحت تصرفهم باستجابة عالية وعلي مدي متعدد المواقف. وتأتي النجاحات المتميزة التي حققتها الجيوش البيزنطية تحت إمرة سلسلة من القادة الأكفاء بصفة خاصة في النصف الثاني من القرن العاشر لتعزز الدليل علي وجود أبحاث تكتيكية بيزنطية مطورة.

وقد وصفت احدي الكراسات الحربية تشكيلا للمشاة مكونا من فرق تستخدم كعوبا غليظة و مزاريقا طويلة ، أو حرابا . مهمتهم مواجهة هجمات الفرسان الثقيلة ودحرهم علي أعقابهم . ويمكن القول أن التكتيك تطور بشكل أكبر بعد مضي عشرون عاما ، حيث كان في كل وحدة مشاة مكونة من ألف رجل مائة جندي مجهزون جيدا إلي جانب أربعمائة من حملة الحراب وثلاثمائة من حملة السهام ومئين من المشاة الخفيفة مسلحون بالمقاليع والمزاريق الصغيرة. وانعكس ذلك التغير الهام في دور المشاة في تغير الموقف السياسي والعسكري للقرن العاشر.

ومن الجدير بالذكر؛ أن الخيالة بدأت في إحراز مكانة سامية في التنظيم العسكري والتكتيكات منذ القرن السادس. غير أن نصوصا من القرن العاشر تعطي تشكيلات المشاة مكانة مساوية إن لم تكن أفضل من حيث المعاملة. ومرة أخري صار المشاة حجر الزاوية في الجيش، سواء من حيث العدد أو التكتيك. وهو ما يعني تباين واضح في الموقف عما كان عليه الحال في القرون السابقة.

لقد تجسد التكتيك الجديد في شكل مبتكر، يعمل فيه المشاة والفرسان معاً. حيث يتم عمل فراغ دائري أو مستطيل وفقا للتضاريس، مصمم للتعامل مع حركات الالتفاف من قبل خيالة العدو. يكون ذلك الفراغ بمثابة ملجأ لوحدات الخيالة عندما تجبر علي الانسحاب بحماية ودعم المشاة ووسيلة لدعم معنويات الخيالة وترابطها. وسرعان ما يصطف الفرسان في صف متين للقيام بدور دفاعي قوي، بيد أنهم يندمجون بهمة في التكتيكات الهجومية للخيالة الثقيلة في تلك المرحلة. وأحد المظاهر الهامة للتجديد كان التركيز علي جند مشاة متميزون من أبناء شعوب اشتهرت بحبها للقتال داخل أراضي الإمبراطورية وبخاصة الأرمن.

كان التغير الذي ظهر أكثر من أي شيء أخرفي تلك المرحلة، هو أن المشاة كانوا أكثر شبها بأسلافهم من قدامي الجند الرومان . ويعزو ذلك إلي ما نجم عن حاجة إلي التنسيق في وظيفة التكتيك من تجهيز وتسليح. وقد ظهرت تشكيلات جديدة للفرسان، وكذلك فرق مدرعة مسلحة تسليحا دقيقا من الرأس إلي القدم و الوجه والعنق والأرداف والأرباع ، كل ذلك كان مغطي بالدروع لتحاشي سهام العدو من النيل من الفارس. وكانت تعرف باسم Kataphraktoi أو Klibanophoroi . غير أن عدد تلك الفرق نسبيا كان قليلاً. ربما للتكلفة العالية للاحتفاظ بهم. وكانت تلك الفرق هي النخبة الضاربة في كل ميدان. ولديهم القدرة علي إحداث الارتباك بمهمتهم الوحيدة في سحق خيالة العدو وخطوط المشاة وشطر صفوفه واختراقها لتمكن للفرسان والمشاة الداعمة من استغلال الموقف. وقد علق الكتاب المعاصرون من بيزنطيين وعرب علي أثر ذلك التشكيل علي العدو. ولقد أحرزت الجيوش

البيزنطية السمعة الجيدة إلي حد جعل أمراء الشام في العام ١٠٣٠ يرهبون الجيش. غير أن كل هذه النجاحات كانت نتيجة تضافر كل من التنظيم الجيد جنبا إلي جنب مع الإمدادات والفكر العميق والتسليح الجيد والتدريب وتشكيلات الجند والخلق المتميز.

ويبقي المحور الحقيقي وهو أثر القائد الآمر . و علي أية حال فإن الجيش يكون جيدا طالما كانت قيادته جيدة . وعلي الرغم من أن نظام التكتيك والتدريب أعطيا بالتحديد الجيوش البيزنطية عبر تاريخ الإمبراطورية الطويل ميزة واضحة ، فإن الاعتماد علي جاذبية وموهبة القيادات كان له أثره في ضعف مستوي التكتيك العسكري للإمبراطورية . كما أفرزت الإستراتيجية الهزيلة والنزاعات السياسية الداخلية خلال النصف الثاني من القرن الحادي عشر مشاكل خطيرة أدت إلي تناقص جيوش الميدان والدفاعات الإقليمية . وبينما تتطلب الحروب الهجومية توفير أعداد ضخمة من المحاربين المحترفين أو المرتزقة ، سواء من المستوطنين أو الأجانب فقد ترتب علي هذا التناقص أن أهملت كثير من وحدات الجيش الإمبراطوري في الثغور خاصة في الفترة التي أعقبت وفاة باسيل الثاني عام ١٠٢٥.

وقد رسم ميخائيل أتاليانس وهو معاصر لمعركة ملاذكرد عام ١٠٧١، حيث رافق البلاط الإمبراطور خلالها صورة حزينة للحالة التي كانت عليها الثغور ، كما تحدث عن الجباية العالية من أجل الإعداد لتلك المعركة . وقد لاحظ أن جيوش الأقاليم لم تكن لتصلح تماما لشن حرب حيت لم يشاركوا في أي حشد حربي لسنوات عديدة . غير أن روايته عن حملات الإمبراطور رومانوس الرابع في السنوات من ١٠٦٨ إلي ١٠٧١ تبين أن الجيوش الإمبراطورية كانت ما تزال تمتلك التنظيم والقدرة علي الانضباط والترابط عندما يتطلب الأمر . كان تزايد التأثير السياسي والثقافي للعالم من حول بيزنطة والذي كبح لفترة طويلة يعني أن الإمبراطورية اقتربت أكثر وأكثر للاندماج من تكتيك البلدان المحيطة بها.

غير أن النظام والانضباط ظلا عنصران مميزان للجيوش البيزنطية، تلك الجيوش التي صارت فيما بعد تشمل خليطا من لغات متعددة وأصول عرقية متنوعة. فهناك السلاجقة، والفرسان حملة السهام من الكومان، إلي جانب النورمان والجرمان والفرسان الفرنجة، ومشاة خفيفة من البلغار والأناضول، وحرس إمبراطوري يجند أعضاؤه من خارج الإمبراطورية. (كان الفارانجيون ـ علي سبيل المثال ـ من انجلترا وقد غادروها عقب غزو النورمان لها). ويمكننا القول بشكل قاطع أن الجيش البيزنطي لم يعد بيزنطيًا.

وتجدر الإشارة إلي؛ أن أحد مبتكرات التكتيك النورماني في تلك الفترة كان نمط الفارس المدرع الثقيل. وكان ذلك النمط موضع جدل بين الجند والقادة البيزنطيين، علي الرغم من أنهم ألفوا ذلك التكتيك (عمل النورمان ضمن الجيش الإمبراطوري فيما بين عامي ١٠٣٠ و١٠٤٠

في كل من إيطاليا وصقلية). ونادرًا ما كان البيزنطيون بحاجة لمثل ذلك التكتيك، فإن معظم الحروب التي خاضوها منذ عام ١٠٦٠ كانت في مواجهة خيالة خفيفة، وقوات معادية سريعة الحركة، مثل الأتراك والبشناق، وحيث أن الخيالة البيزنطية في أخريات القرن الحادي عش كانت مسلحة بالرماح والعصي، فإنها تفوقت في الحركة، لا في التصويب. وكان هدفها الكر علي قوات العدو ومواجهتها. وعلي الرغم من الجهود المبذولة في ظل أباطرة الأسرة الكومنينية، فإن كثيرا من الوحدات المكونة من السكان الأصليين كانوا يسلحون ويدربون وفقا للنمط العسكري الغربي. لذا كانت النتيجة جيشا لا يختلف عن أي جيش متعدد الأعراق واللغات من المرتزقة في تكتيكاته وتشكيلاته.

غير أن التميز في الانضباط الصارم والنزعات التكتيكية للفرق الإمبراطورية يتضحان عندما يكون هناك حسن استغلال لهما من قبل قائد قدير. وقد أثبتت ذلك السنوات الأخيرة من القرن الثاني عشر. وبمنتصف القرن الثالث عشر ، وسقوط القسطنطينية في براثن جيوش الصليبية الرابعة، فإن المصطلحات التقنية والألقاب والأسماء لأنواع الوحدات ظلت مستخدمة في المناطق المتبقية من الإمبراطورية. وكان التكتيك والتسليح والدروع لا يختلف عما لدي أولئك المحيطون بها، من قبائل ودول والذين كانت تتناوب معهم بيزنطة الحرب والسلام.

الإستراتيجية:

تطور الفكر الاستراتيجي ليواجه احتياجات المرحلة ، فقد كانت الوحدات الحربية منذ القرن السادس وحتى الفتح العربي تعسكر في حاميات بطول الحدود وخلفها وتعرف باسم Limitanei " جند الجبهة" frontiers soldier . وكانت تتشكل عادة من الألوية القديمة والتشكيلات المساعدة . بينما كانت جيوش الميدان تضم وحدات مشكلة حديثًا، وتقيم في الأقاليم وفي الغالب فيما وراء الحدود، وفق أسس إستراتيجية حيث يمكنهم من تلك المناطق مواجهة أي عدوان علي الأراضي الرومانية. وكانت الثغور ناجمة عن خسارة إقليمي الشرق والدانوب خلال القرن السابع حيث زال الأول، وتم الانسحاب من الثاني إلي آسيا الصغرى، والتي شكل البيزنطيون بها تلك الثغور كما سبق الإشارة في الفصل المعنون بـ "اندلاع" .

وقد ظهرت في أواخر القرن العاشر مناطق كثيرة صغيرة بكل طول الجبهة الشرقية والشمالية تحت قيادة doukes دوقات، تعمل كنقاط دفاعية ، وكذلك نقاط وثوب لمزيد من الهجوم والتقدم. وفي ذات الوقت تمت إزالة الثغور القديمة بالتزامن مع التوسع في استخدام المرتزقة، كما سبق القول.

وقد جلب الانهيار الذي حدث في أواخر القرن الحادي عشر معه الحاجة إلي إعادة التنظيم، وكذلك التغييرات المتميزة لآل كومنين الذين شيدوا سلسلة جديدة من الثغور، وحدودا جديدة في آسيا الصغرى. وكانت المبادئ الأساسية لإستراتيجية الدفاع عن العمق في القرن الحادي عشر تعتمد علي الحصون، والنقاط المكينة مدعمة بقوات إمبراطورية فردية ميدانية متمركزة في داخل وخارج القسطنطينية.وفي القرنين الأخيرين من عمر الإمبراطورية ـ ما بين عامي ١٢٥٠ و ١٤٥٢ لم يطرأ أي تغيير أساسي بالنسبة لإستراتيجية الدفاع تلك علي الرغم من تناقص أعداد الجيش بشكل كبير بسبب تقلص موارد الإمبراطورية.

السوقيات: فن نقل الجنود وإيوائهم وإمدادهم

لا ريب أن أحد أسباب بقاء الإمبراطورية من القرن السابع فصاعدا يرجع إلي مقدرتها اللوجستية الفعالة . لقد ظل نظام الطرق من الأساسيات الهامة علي الرغم من تضاؤل مداها وانحطاط جودتها بالمقارنة مع الطرق التي كانت قائمة في الحقبة الرومانية . بالإضافة إلي النظام الإداري المالي الحريص والمرتبط تماما باحتياجات الجيش. وعلي الرغم من الحاجة إلي تبين تطور النظام المالي وإدارته الدقيقة ، فإن ترتيبات الدعم للجند كانت فاعلة في وقت السلم والحرب.

كانت الموارد تجمع إما نقدا أو عينا، وتوقف ذلك علي عدد من المتغيرات منها: مدي كفاية النشاط التسويقي في المناطق المسئولة عن الدعم، الحاصلات الزراعية والموارد الأخرى المتاحة التي يحتاجها الجيش ، وكذلك إمكانية تخزينها، و ما هي الاحتياجات الخاصة الحقيقية للجيش، وعدد الجند والدواب المطلوب تغذيتها وتوفير الثكنات لها ، أيا ما كان الوقت . ولا شك أن تأثيرات الجند علي الأرض وسكانها كانت مفهومة جيداً. وتوجد في المصادر المكتوبة عن تلك الفترة توصيات للقادة بعدم تمركز الجند في أي منطقة بيزنطية لفترة طويلة. وكذلك وجد في تلك الكتابات وصف لما يحدث عندما لا تتبع تلك النصيحة.

وتجدر الإشارة إلي؛ أن المسئولين الماليين المحليين كانوا يعملون مع السلطات المركزية وقسم السجلات العسكرية في القسطنطينية عندما يبدأ التخطيط لحملة حربية، حيث يعملون علي توفير الكميات المناسبة من الموارد المطلوبة للعدد المتوقع. وغالبا ما كان الإنفاق مرهقا جداً. وتشير الروايات عن القرن العاشر إلي أي مدي يكون العبء ثقيلا خاصة عندما يشارك الإمبراطور وحاشيته في الحملة. وكان علي كل إقليم يمر به الجيش أن يوفر المؤن اللازمة للقوات من قمح ولحم وغالبا ما كانت لحوما حية، وكذلك الزيت والخمر.

ويذكر أن الحملة الكبيرة كانت تقسم بصفة عامة إلي عدة سرايا صغيرة. تتخذ كل منها طريقا منفصلا متقدمة إلي الموعد المضروب مسبقا علي الجبهة . ويكون عدد رجالها عشرون ألفا أو أكثر . وغالبا ما يزيد العدد وفقا للأعمال العسكرية اليدوية المرهقة المنوطة بالجند بسبب الأمتعة الزائدة . ولا يرافق الضباط والرجال الأثرياء أحد من الخدم ، لما يحدثه ذلك من مشاكل تتعلق بالطعام والنقل . وإذ كان كثير من القادة التزموا بذلك ، فإن لدينا ما يثبت أن آخرين لم يفعلوا، حيث كان الانضباط مهملا في تلك الظروف بكل ما يجلبه ذلك من عواقب.

من ناحية أخري، فإن ذهاب البيت الإمبراطوري إلي المعركة كان يتطلب كميات كبيرة من الأمتعة، حيث الرفاهية التي اعتادها الأباطرة، والتي قل أن يتخلوا عنها. ويمكن الزعم بأن الأمتعة الإمبراطورية في نهاية القرنين التاسع والعاشر كانت تحمل علي ظهر ستمائة دابة من نوع واحد أو أكثر ، وذلك لحمل خيام البيت الإمبراطوري والسجاجيد والأثاثات الأخرى والتي تشمل خزانة متنقلة ، ومقعد إمبراطوري لشخص الإمبراطور والعديد من الموائد ووسائد وأدوات المائدة، وكنيسة خاصة متنقلة، وحمام تركي متنقل بملحقاته، وخمور عالية الجودة، ولحوم، وطيور ، وتوابل وأعشاب، فضلاً عن الأدوية، وأغراض أخري للاستخدام الشخصي. وكانت تؤخذ أيضا أعداد ضخمة من الهدايا في شكل عملات ذهبية أو فضية، أو ملابس فخمة غنية بالتطريز. كذلك نوعيات أخري من الملابس بغرض تقديمها كمكافآت لضباط الأقاليم، وبعضها هدايا ورشا للضيوف الأجانب ذوي المنزلة الرفيعة، أو ربما إلي الفارين من الجانب الآخر.

وفيما يتعلق بمسلك القادة المشاركون في الحملة والذين كانوا بصفة عامة من النخبة الاجتماعية، أي كانوا أثرياء بطبيعتهم. فقد كان متنوعا: حيث كان البعض يسلك مسلك الزاهد كاسبا احترام رجاله، والبعض يحرص علي مشاركة الجند أسلوب حياتهم، بينما يصر آخرون علي حمل كل وسائل الراحة المنزلية معهم قدر استطاعتهم، وذلك حرصا منهم علي تأكيد وجاهتهم الاجتماعية.

ويمكن القول بصفة عامة، إن نظام إعداد الحملة ودعمها كان كافيًا وفعالاً. ويجعل القوات البيزنطية قادرة علي البقاء في الميدان في ظل أصعب الظروف. وإن لم تكن أجهزة الدعم أحيانا علي المستوي المطلوب، بصفة خاصة في سياق حرب العصابات في المناطق الحدودية، حيث علي الجند مغادرة أرض الميدان وسلوك دروب مجهولة لاقتفاء سرايا العدو وإنهاك قواها. بيد أن الأجهزة المالية الإقليمية كانت قادرة علي استرجاع قيمة ما أفناه الجند بسهولة من خلال ضرائب تفرض لسنوات قادمة. وعلي الرغم من ذلك، فإنها مثل كل شبيهاتها من النظم، انحدرت إلي الترهل وعدم الكفاءة والبطيء والظلم.

وأيا ما كان الأمر، فيما يتعلق بالجيوش البيزنطية ، فإن الهزائم كانت تعزو عموما إلـي فقـر القيادة أو لكل من فقر الأخلاق ونقص النظام. غير أن كل ذلك كان نتيجة مباشرة لإمكانيـات وقدرات الضباط الآمرين. لقد قاموا بحماية أراضيهم بنجاحات مختلفة علي مـدار سـتمائة عـام من القرنين السادس و السابع وحتى القرن الثاني عشر. إذا نحن ضمنا ذلك الهجمات الدفاعيـة المضادة في آسيا الصغرى في الفترة من١٠٨٠إلي ١١٧٠ بقيادة الأباطرة الكومنينون الكسيوس ، ويوحنا الثاني، ومانويل الأول. فقد حافظوا بنجاح ـ علي الـرغم مـن بعـض الهـزائم الوبيلـة ـ علي سيادة الإمبراطورية الرومانية علي أراضيها الشرقية. وكانوا قادرين دوما في عدة مناسـبات علي التحول من الدفاع إلي الهجوم.

وغالباً ـ إن لم يكن دوما ــ ما كانت الترتيبات اللوجسـتية الـتي تمسـكت بهـا الإمبراطوريـة عاملا مهما في هذا الصدد . ولا شك أنه عندما تغيرت الظروف السياسية والاقتصادية التي كان علي الإمبراطورية أن تعيش فيها بما يكفي من أجل البقاء فإنها سرعان ما فقـدت القـدرة علـي الحفاظ علي توفير متطلبات الدعم اللوجستي، مما أدي أخيرا إلي سقوطها.

صورة محارب

"التجنيد والانضباط والحياة في معسكرات الجيش"

لا يوجد أدني شك؛ في أن غالبية الجند العاديون في الجيش عبر تاريخ الإمبراطورية كانوا من طبقة متواضعة . وفيما يبدو أن ثراء جند الثيمات العاديين في القرنين التاسع والعاشر جعلهم يحتلون مكانة أعلي نسبيا في مجتمعاتهم. ومهما يكن من أمر، فإنهم إلي حد ما وبسبب وضعهم المالي والقانوني، كانوا معافون من أية ضرائب زائدة ، وعدد من الالتزامات للدولة ممثلة في صورة خدمات عمل أو تزويد الثكنات أو توفير التموين لجند أو ضباط آخرين ،أو للموظفين الرسميين في الإمبراطورية ، وهو ما كان يلزم به الناس العاديون . كذلك كان بإمكانهم أن يهبوا أملاكهم دون الالتزام بشكل صارم بقانون التوريث الروماني عن تقسيم الملكية بين الورثة. ولقد مكن ذلك الجند من كل المستويات بما فيهم أولئك الذين لا يتلقون رواتب خاصة من تحسين وضعهم الاجتماعي، وبث فيهم شعورا جماعيا مترابطًا.

وفيما يتعلق بالتجنيد ومدة الخدمة العسكرية في الفترة من منتصف القرن السادس وحتى نهايته، فإن المصادر لا تمدنا بما يفيد. ويبدو محتملا أن التقاليد الرومانية كانت مطبقة فيما قبل هذه الفترة حيث كان أدني حد للتجنيد هو سن الثامنة عشر، ولا يقل الطول المطلوب عن خمسة أقدام وست بوصات. ويوجد سبب للاعتقاد بأن سن التجنيد في القرنين التاسع والعاشر لم تقل عن الثمانية عشر سنة، بينما كان الحد الأقصى أربعون عاما. وكان من غير المعتاد البقاء في الخدمة بعد سن الأربعين. وإن وجدت حالات لرجال خدموا بعد تلك السن. كما ذكرت بعض المصادر أن كثيرًا من الضباط استمروا في الخدمة طويلا بعد انتهاء قدرتهم علي العطاء. مما كان يؤثر سلبهم علي كفاءة وحداتهم الحربية.

وكانت هناك اختلافات هامة في الشروط التي تطبق علي المجندين في وحدات الجيش المحترفة مثل التاجماتا، وأولئك المنضمون إلي جيوش الأقاليم أو الثغور. حيت تحكم الالتحاق بالمجموعة الأولي مجموعة من الضوابط والتي ترجع في أصلها إلي تشريعات الإمبراطورية الرومانية، وظلت تلك المجموعة متمسكة بها. بينما كان مطلوبا ممن ينخرط ضمن جند الثغور أن يكون مجهزا في العرض بالمؤن والدرع والرمح. كما فرضت قيود أخري علي من يرغب في التجنيد حيث منع المهرطقين ـ نظرياً علي الأقل ـ من دخول الجيش، كما منع الرهبان والقساوسة، أما من ثبتت إدانته بالزنا أو ما شابه والذين ثبت كذلك عدم نزاهتهم فإنهم حرم من الالتحاق بالجيش. غير أنه من الصعب معرفة إلي أي مدي روعيت تلك النظم، وقد تغير الحال منذ منتصف القرن السابع حيث أهمل كل الشروط الخاصة بالفترة الرومانية. وعلي أية

حال؛ لم يكن تطبيق مثل تلك النظم سهلا بالنسبة للوحدات الأجنبية خاصة المسلمين والفرنجة وآخرين ممن لا يتبعون سياسيا أو دينيا لبيزنطة وآخرين مثل الأرمن الذين كانوا ينتمون لجماعات غير أرثوذكسية.

وبمجيء القرن العاشر، كان الاختلاف كبيرا بين الوحدات العسكرية العديدة التي يلتحق بها الجند من حيث أصولها أو قيمتها الحربية أو بيئة عملها . وكان لابد أن يؤدي ذلك الاختلاف إلي اختلاف مماثل في شروط الالتحاق للخدمة العسكرية بها ، لا فيما بين جند الثيمات البسيطة التاجماتا الإمبراطورية ولكن بين وحدات الأجانب والجند المرتزقة المجندون لحملات بعينها.

كان الجنود ، سواء التاجماتا أو الثيماتا، يتلقون رواتبهم من الحكومة. وكانت أسماؤهم تدرج في السجلات العسكرية، وتحفظ نسخة منها في الإقليم التابعون له والأخرى في الإدارة الحكومية المسئولة في القسطنطينية.

ومن الجلي؛ أن الوحدات الأجنبية كانت تعد ضمن المرتزقة ويعملون تحت قيادة ضباطهم. ويمكن أن تعامل بنفس الطريقة من حيث تلقي الرواتب معاملة جنود الجيش، أو تتلقي رواتبها من قبل قادتها الذين يتسلمون مبالغ إجمالية علي فترات منتظمة ليقوموا بتوزيعها علي الرجال. وفيما يتعلق بالإجازات، فقد كانت تمنح للجند وفق نظام التناوب، ولفترات تمتد بين ثلاثين يوما وثلاثة أشهر. يعتمد ذلك علي أهمية وضع الوحدة ، مثل كونها في الخدمة أم في فصل الشتاء. كما كان عدد الرجال الذين يمكنهم الحصول علي أجازة ـ حال السماح بذلك ـ محددا . ويمكن أن يخضع للعقاب الضباط الذين يسمحون بغياب عدد أكبر من المسموح به. غير أنه ليس واضحا ما إذا كانت تلك القواعد روعيت أم لا ، وعلي أي من الوحدات طبقت.

كان الجند المتقاعدون لا يتلقون إعانات من الدولة ، فيما عدا حماية وضعهم المالي ، وامتيازاتهم القانونية ، علي الرغم من وجود جدل بليغ حول إمكانية أن يعني الإمبراطور والدولة بأولئك الذين قاتلوا من أجل الإيمان ومن أجل إمبراطورية الرب علي الأرض . وقد كان هناك نظام معاشات الدولة حتى نهاية القرن السادس أو منتصف السابع ، لكن لعل أوضاع القرن السابع جعلت مثل تلك الترتيبات المالية عبئا صعبا علي الحكومة . وقد انعكس ذلك علي جند الميدان العادين في الأقاليم ، حيث قبلت الدولة دعمهم مباشرة من إداراتهم المحلية ، الأمر الذي نتج عنه امتلاك غالبية جند الثيمات لأراض منها يدعمون واجباتهم فعليهم أن يوفروا المؤن لفترة بعينها وكذلك معداتهم وتسليح أنفسهم ، والخروج للقتال إذا دعا الداعي للحملة الموسمية السنوية . وعندما يتقدم العمر بأولئك الجند ويصيرون عاجزين عن الخدمة ، فإنهم يعودون ببساطة إلي مزارعهم أو يحترفون مهنا تقليدية.

ويمكن بذلك تقسيم الجند إلي عدة مجموعات وفقا لموقعهم في الخدمة : المليشيات الثغرية ذات الدعم الذاتي، جنود الثغر الدائمين المدعمون من الدولة بالرواتب والتعويضات الأخرى، وأولئك المحترفون لتشكيلات خاصة أو حملات خاصة . وكانوا جميعا متساوون في الحقوق القانونية ، حتى مقدم أعداد غفيرة من الجند المرتزقة الأجانب في القرنين الحادي عشر والثاني عشر مما جعل الصورة أكثر تعقيدا.

تجدر الإشارة إلي؛ أن كثيرا من الرجال الذين أتموا الخدمة في الجيش (مثلهم في ذلك مثل كثير كانوا يتحاشون الخدمة الإلزامية ، أو هجروها) سلكوا طريقهم إلي الدير . ومعظم الدلائل لدينا عن ضباط كبار فعلوا ذلك ، غير أن بعض المعلومات عن الجند العاديين تركز علي ذلك النمط من التقاعد ـ الرهبنة ـ خاصة أولئك الذين ليست لهم عائلة تهتم بهم . وتمنع النظم الرسمية الجند العاملين في الخدمة من الالتحاق بالدير ، ويعود ذلك إلي تشريعات الإمبراطورية الرومانية المتأخرة.

إن الانخراط في الحياة الديرية إلي جانب كونه غذاء لروح الأفراد الذين يسعون لذلك الزاد ،يوفر درجة من الأمن المادي . كما يوفر في نفس الوقت الوسيلة التي يمكن يها للجندي أن يكفر عن خطاياه التي اقترفها باسم قتل أعداء الإمبراطورية وبما يؤمن به بينما كان يخدم الإمبراطور.

وكان عدد الداخلين إلي الأديرة من ضباط الأقاليم كافيا لجذب اهتمام أحد المؤرخين العرب ، فيذكر أن أولئك الذين فضلوا تلك الحياة خسروا استمرارية رواتبهم ، لصالح أولئك الذين حملوا ألقابا إمبراطورية.

الضباط:

لم يكن هناك ما يعرف بسلاح الضباط في الجيش البيزنطي ، علي الرغم من أنه كان واضحا أن غالبية الرجال الذين يتولون قيادة وحدات أعلي من فرقة أو كتيبة ، كانوا ينتمون إلي أسر ثرية في المجتمع . سواء كانوا يخدمون في الأقاليم أو في القسطنطينية ، وأولئك الذين في البلاط ضمن احدي وحدات القصر والمخصصة كمدرسة للتدريب.

وتمدنا المصادر بشكل وفير بالمعلومات عن المستويات العالية والمتوسطة للضباط ، ومن الواضح أن الترقي كان يتم حتى القرن الثاني عشر وفقا لعامل الأفضلية . فقد لعبت الخلفية الاجتماعية والتعليم دورا في ذلك الصدد ، لكنه كان من السهل تماما لجندي قادر متمكن أو ضابط من مرتبة أدني أن يرقي إلي منصب أعلي . كما لعبت الروابط الاجتماعية والقرابة دورا هاما في كل مظاهر الحياة في المجتمع البيزنطي ، وكان يمكن تخطي القدرة والتدريب بواسطة الروابط الشخصية ، علي سبيل المثال ، ربما يترقي ضابط في عمله من خلال خدمتة الأولية

ضمن حاشية ضابط مهم ، ولعله إذا عين مبتدئا في فرقة محلية فأنه سيصعد سلم الترقي تـدريجيا أو ينقل إلي وضع أعلي في مكان ما . ويمكن القول ، أن مستقبل البعض تطـور بسـبب خدمـة العائلات في نفس الوحدة.

هناك أمثلة عدة لأبناء الضباط الذين التحقوا بوحدات آبائهم كمتدربين قبل أن يرقـوا إلـي وظيفة ضابط صغير ، ثم مرتبة ضابط كبير ،وفي حالات أخري نسمع عن شـبان متميـزون مـن الأقاليم يرسلون إلي القسطنطينية ، وهناك يعينون في منصب مبتدئ بمساعدة أقـارب مـن ذوي النفوذ أو صاحب مكانة في الحرس قبل مزيد من الترقيات.

في أحدي الحالات والتي من المحتمل أنها ليست نمطية عين شاب ضـمن حـرس النخبـة في القصر ، وذلك قبل أن يرقي إلي آمر مبتدئ ثم منصب لا بأس بـه في الإقلـيم ، قبـل أن يرقـي إلي منصب قيادي ، وذلك في مدي عشر سنين . بيد أن نمو الطبقة الارستقراطية في الأقاليم مع منتصف القرن الحادي عشر أتي معه ببعض التغيير لهذا النظام . حيـث أن تلـك الطبقـة كانـت مصدرا للضباط من المراتب الوسطي والعليا في الإمبراطورية ، ومنذ نهاية القرن التاسع وطوال القرن العاشر صارت قيادة الأقاليم حكرا عليها.

النظام والتدريب:

يفخر الجيش البيزنطي، علي الأقل وفقا لما ورد في الكتابات التاريخية والدراسات الحربيـة، بانضباطه ونظامه . حيث يختلف نمط الحياة فيه عن نمط الحياة المدنية، وكذلك عن نمط الحيـاة في الجيوش المجاورة الأقل انضباطا وتنظيما . وقد كشف النقاب عن ذلك أحد الكتيبات العسكرية الذي يرجع تاريخه إلي القرن السادس، فيقول مؤلفـه:" تنجـب الطبيعـة رجـالا شـجعانا بينمـا يصنع التدريب والرعاية رجالا أكفاء". وتجدر الإشارة إلي اختلاف مستويات الانضـباط وهـو الأمر الذي جذب اهتمام القادة والكتاب في كل أبحاثهم العسكرية. كانت هنـاك حـالات عـدة من التمرد والقلق بين جيوش الأقاليم ، وأمثلة لفزع القوات عند التفكير فيما إذا قتل القائـد أو جرح ، ويعطي هذا مؤشرا علي تنوع الحالة النفسية للقوات.

وليس من الواضح في المصادر المتاحة إلي أي مدي يمكن فعليا فرض الانضباط. وغالبا فإن القادة القادرين هم مـن كـان بإمكـانهم تطبيـق الانضـباط فعليـا. ويرجـع ذلـك إلـي حـد مـا لشخصيتهم، والمقدرة علي بـث الثقـة في الجنـد وهـذه فرضـية معـترف بهـا أيضـا في الأبحـاث العسكرية. وكان السخاء المالي، سواء من القادة أو الضباط أو من الحكومة عامل فعال لتشجيع الجند عل إتباع الأوامر، وقبول الانضباط الضروري من أجل قتال فعـال. ويختلـف الانضـباط وفقـا للفـرق العسـكرية للإمبراطوريـة، حيـث يسـود تحديـدا وحـدات النخبـة مثـل التاجماتـا الإمبراطورية انضباطا صارما، وكذلك الوحدات ذات الولاء الخاص لقادتها.

وتحكي أحدي الروايات عن ضابط تعرض لتوبيخ من الإمبراطور ذاته بسبب مظهره الرث، وذلك عندما كان يعرض عليه البريد في القصر. ولعل الانضباط كان أقل فعالية فيما بين المليشيات مثل قوات الثيمات، إلا أن تواجد قادة أكفاء كان كافيا لفرضه والالتزام به تمامًا. وأيا ما كان الأمر، فقد كان هناك وجودا للانضباط العسكري الذي أشارت إليه الكتيبات العسكرية، في الوقت الذي عمل القادة الأكفاء علي تطبيقه وترسيخه. ولدينا تقرير عن قيام الإمبراطور نقفور الثاني بمعاقبة جندي أسقط درعه لأنه لم يكن قادرا عن مواصلة حمله. وقد تجاهل ضابطه الأمر، فعاقبة بقسوة علي خلفية أن الجندي يعرض نفسه ورفاقه للخطر بينما عد الضابط مخالفا مرتين أولا تجاهله لما بدر من الجندي والأكثر من ذلك ثانيا هو تعريضه القوة كلها للخطر.

وكان كل من الأباطرة قنسطنطين الخامس في القرن الثامن، ونقفورس الثاني ، ويوحنا الأول زيميسكس ، وباسيل الثاني في أخريات القرن العاشر يحترمون ويحبذون الانضباط الصارم، كذلك كان الكسيوس الأول في أخريات القرن الحادي عشر. ولكن غالبا ما كان الانضباط عرضه للتسيب . وتوجد بعض إشارات في المصادر عن التدريبات التي يؤديها الجنود، كما أيد ذلك ما ورد من أوصاف لتدريبات مماثلة في كتيبات التكتيك وكتب الجيب للجند. وقد اصطنع نقفور فوقاس سلسلة من الألعاب الحربية والمعارك الوهمية في الهبدروم بالقسطنطينية في عام ٩٦٠ ، كانت مطابقة للواقع ومرعبة حيث دب الذعر بين المشاركين مما أودي بحياة كثيرين. وأيا ما كان ما ذكرته النصوص المكتوبة عن قيمة مثل تلك التدريبات، فيبدوا أن القادة المحنكون كانوا مدركين عموما لأوجه الخلاف بين نوعيات الفرق التابعة لهم.

وغالباً ما شملت الأبحاث الخاصة بالحرب المناورات التكتيكية البسيطة والسهلة لحشد كبير من مشاة الثغور والذين كانوا إجمالا غير مجهزين جيدا ولا يمكن الركون إليهم. وفي المقابل فإن فرسان الخيالة الثقيلة المدربون تدريبا عاليا ومجهزون تجهيزاً جيدًا ووحدات النخبة كان ينتظر منهم القيام بمناورات أكثر تعقيدا في ظل هجوم معادي، في أرض الميدان حيث تعمل المهارات والتدريب والانضباط والمعنويات كلها جنبًا إلي جنب. ويوضح أحد الكتيبات من نهايات القرن السادس نوع التدريب وخاصة المهارات التي يجب علي الفرسان أن يبلغونها: الفارس لابد أن يصوب بسرعة ويعتلي جواده ويخب به إلي الأمام وإلي الخلف وإلي اليمن وإلي اليسار. ويجب أن يتدرب علي القفز فوق جواده. وعليه عند اعتلاء جواده أن يطلق سهم أو اثنين بشكل سريع ثم يضع القوس في النشابه ثم يأخذ الرمح الذي يحمله علي ظهره وعليه أن يمسك الرمح بيده مع القوس في نشابه ثم يستبدل الرمح علي ظهره بسهم يأخذه بيده بشكل سريع.

كان الفرسان مدربون كذلك جيدا علي التشكيلات سواء في أعداد كبيرة أو صغيرة، وبإمكانهم الدوران والحركة من عمود إلي خط ثم العودة ثانية. والهجوم منه لاختراق صفوف العدو وهكذا دواليك. ولا ريب أن النجاح في ميدان القتال اعتمد علي كفاءة تنفيذ مثل تلك المناورات. علي الرغم من ذلك فأنه كان مسموحا أيضا أداء المناورة بأبسط شكل لتجنب الارتباك أو تلافي عدم الاستعداد الكامل، وتوجد أمثلة للمعارك التي كان أحد أسباب اندحار القوات الإمبراطورية فيها يمكن أن يعزو لمثل تلك الأخطاء.

الحياة في الحملة:

كما رأينا، الحياة كجندي في الجيش البيزنطي، تغيرت بالضرورة كثيرا من قرن إلي آخر بتغير ثروة الإمبراطورية، والاعتماد علي ضباط القيادة، ونوع الوحدة ، إلي آخره. وما لدينا من معلومات عن الأفراد من جند الجيش البيزنطي قليل، ولكن هناك كم جيد من المعلومات التي يمكن أن نستقيها من مصادر مكتوبة علي مدي زمني متسع عما يمكن أن تكون عليه حياة الجندي العادي. لذلك سوف أوضح ـ فيما يلي ـ بعض الأمور، بابتكار شخصية طبق الأصل لأحد الجنود. وعلي الرغم من عدم وجود نص يتعلق بذلك الجندي المفترض، فإنه يمكننا أن نرسم صورة لبعض الأحداث في حياته من مصادر عدة . لذا فإن الرواية التالية والأحداث التي حدثت لذلك الجندي، والأعمال التي تنسب إليه ، يمكن أن نجدها في مصادر التاريخ الوسيط المتعلقة بالفترة من القرن السابع إلي القرن الثاني عشر. وهي مطابقة تماما للسياق التاريخي الذي سأضعه فيه.

وسنتتبع في هذا القسم الحياة اليومية لفارس مشارك في حملة تحت أمرة القائد بارداس سكليروس Bardas Skleros في البلقان عام ٩٧١ م . كان اسم الجندي ثيودور Theodore ، وهو اسم شائع ومألوف . ويشاركه فيه أحد الجند القديسين في عالم الشرق المسيحي ، هو القديس ثيودور المجند Theodore the recruit أحد السادة القديسين المحاربون الأربعة وهم القديس ديمتريوس و مكاريوس وجورج.

ويرجع أصل ثيودور إلي قرية كريثوكومي Krithokomi بالقرب من حصن بلدة زورولون Tzouroullon في تراقيا . وكان ثيودور ابنا لأحد الجنود ، وكانت أرض العائلة خاضعة للخدمة العسكرية στρατεία أو strateia ، وهي خدمة عسكرية مستحقة علي أولئك المسجلون في سجلات الخدمة العسكرية للثغور غير أن عائلة تيودور لم تكن ميسورة الحال، غير أن جيرانه ، الخاضعين أيضا لتقديم خدمة عسكرية كان مطلوبا منهم تجهيز وإعداد فارس فقط . وقد ساقته مهارته إلي وحدة الرماح ، حيث أصبح فارس متوسط التسليح إلي جانب حمله الأقواس والسهام . وقد احتل مرتبة ديكاركوس dekarchos ـ قائد فصيلة من

عشرة مقاتلين في سرية من خمسين مجندا . وقد خدم بالفعل في دوام كامل وليس موسميا ، وقد أتاحت له حروبه الفرصة للترقي ربما إلي المرتبة الثانية في قيادة فصيلته.

وفي ربيع عام ٩٧٠ واجهت الإمبراطورية غزواً ضخماً من قبل القوات الروسية التي توغلت في عمق الأراضي الإمبراطورية في تراقيا . وهناك فاجأوا الحامية المحلية علي حين غرة ، وأمكنهم تدمير الحصون في فيليبوبولس ـ بلوفديف الحالية - قبل أن يتقدموا بطول الطريق إلي القسطنطينية . وذلك في الوقت الذي كان الإمبراطور يوحنا في الشرق مع غالب قواته الميدانية ، حيث كان يعسكر بالقرب من أنطاكية . وقد عين الإمبراطور يوحنا كلا من بارداس سكليروس والباتريكوس بيتر ـ وكلاهما قائدان محنكان ، لقيادة قوة متوسطة من عشرة آلاف رجل لاستطلاع وضع القوات المعادية في المناطق المحتلة . بينما كان الغرض الثانوي هو تدريب القوات ومنع الغزاة المعادين من اقتراف أعمال سلب أخري . كما أرسلت في ذات الوقت جواسيس متنكرون في زى تجار بلغار وروس إلي المناطق التي يتواجد بها العدو لمعرفة ما يمكنهم معرفته عن تحركات القائد الروسي سفياتوسلاف. وسرعان ما علم سفياتوسلاف بمقدم القوات الإمبراطورية ، وبدوره أرسل قوة مكونة من الروس والبلغار مع دعم مستقل من جانب البشناق والذي كان قد تحالف معهم آنئذ، لدحر الرومان.

تم المسير نحو الشمال وفقا للخطة الموضوعة، وحيث أن بارداس كان في حاجة للتحرك السريع، فإنه حث الخطي نوعا ما. وفي داخل الأراضي الإمبراطورية كان بإمكانه أن يعول علي تعاون المسئولين المحليين في تمويل قواته. بينما يختلف الأمر في أرض العدو حيث كان علي جنده ودوابهم الإسراع في تلك الأرض. وبغض النظر عن أي أرض كانت ، فإن الجيش دائما يتخندق في المساء. وقد أرسلت قوة الاستطلاع والمساحون ليحددوا موقعا مناسبا يمكن أن يوفر لهم كلا من المورد الكاف من المياه، والإمكانات الدفاعية الجيدة. ويفضل أيضا أن تكون أرضا مفتوحة لتحاشي إمكانية هجوم مباغت. وفي هذه الحملة كان المطلب الأخير صعبا، حيث مر الجيش بكثير من التلال والغابات البرية. ولقد اتبعت الحملة البيزنطية النموذج الأمثل في عملها.

ونصبت راية القائد في المنتصف وقام الضباط التابعين لبارداس بتقسيم قوته إلي ثلاثة أقسام من حوالي ٣٥٠٠ رجل علي أن يتشاركوا القسم الرابع حيث قسم المعسكر إلي أربعة أقسام . وقامت الوحدات المختلفة بنصب خيامها حول الإطراف في وضع يقارب قدر الإمكان نمط الحرب حتى إذا ما حدث هجوم مفاجئ أو دعت الضرورة لمغادرة سريعة، فأنهم سيكونون جاهزون للعمل. أما المعسكر ذاته فكان يتكون من خندق بسيط حفره الجنود أنفسهم حول الأرض التي ترتفع خلفه وتمهد من الداخل. ويحيط الخندق رماح ودروع الجند من خلفه. وقد

تنصب الرماح علي شكل Triskelia وتتشكل من ثلاثة رماح مربوطة عند أقصي نقطة بالحبال وتعمل كحائط صد خلف الخندق. وتوجد بمعظم المعسكرات ما بين طريقين أو أربعة طرق عرضية تمثل فواصل تقام داخلها خيام الجند. بحيث تتواجد بها قوات المشاة والخيالة، وكانت الأخيرة تتمركز في المقدمة من أجل الحماية . وفي حال سمحت الظروف والإمكانات البشرية، فإن مدي عرض المعسكر المفترض يكون علي مدي رمية سهمين ونصف السهم حيث يمكن للدواب أن ترقد في الوسط بأمان.

وبالنسبة للمعسكرات الكبرى، التي تضم جيشا ميدانيا ضخما مكونا من عشرين ألف رجل إلي جانب دوابهم ومعداتهم، فإن اتساعه الداخلي كان يزيد عن الميل كما أن الخندق المحيط به كان علي شكل حرف v وبعمق ما بين ست إلي ثماني أقدام.

كانت وحدة الجندي تيودور مثل كل الوحدات تضطر إلي عمل دوريات لحراسة المعسكر، بيد أن القائد العم كان بحاجة إلي إقامة حراسة علي المعسكر بكامله، لذا فإن كل وحدة بالمعسكر كانت ملزمة بتوفير الجند اللازمون لتلك الحراسة وتدعي . Kerketon وكانت تستخدم كلمة سر متغيرة للسيطرة الكاملة علي كل مداخل ومخارج المعسكر.

وكانت ترسل وحدات لجمع الأعلاف للدواب يرافقها جند للحماية. ولأنه من الضروري تأمين المعسكر قبل غروب الشمس فإن علي تلك الوحدات الإسراع في العودة قدر الإمكان. ويلاحظ أن الانصراف من المعسكر بعد غروب الشمس كان ممنوعا باستثناء أولئك الذين يخفرون الخطوط الأمامية. وفي الوقت الذي يتأكد عدم وجود أعداء بالضواحي القريبة كانت ترسل مجموعات من أربعة رجال لتغطية الأماكن القريبة من المعسكر وتأمينها.

ومما تجدر الإشارة إليه، أن كل خيمة كانت تضم ثمانية رجال وتدعي Kontoubernia ، يتشارك أفرادها في الطحين وأواني الطهي الأساسية ، إلي جانب اللحم ، وكان الجند يتلقون نوعين من الجراية، أرغفة عادية وأخري محمصة وكانت الأخيرة معروفة عند الرومان باسم Bucellatum ويسميها البيزنطيون Paximation أو Paximadiom . وكان طبيعيا أن يقوم الجند في ظروف الغزو بطحن الحبوب وصناعة هذين النوعين من الخبز . وكان الخبز المحمص سهل التخزين لمدة طويلة وسهل خبزه وإن تطلب نوعية جيدة من الطحين ومهارة عل الخبز . وتدعي الأفران التي يخبز فيها Klibanoi كما يخبز بوضعه علي رماد نيران توقد داخل المعسكرات وهي ميزة حال أن تكون السرعة مطلوبة.

كان ذلك هو الحال إبان تلك الحملة، غير أن الجند كانوا يفضلون نوعا من الخبز المصنوع في أفران خاصة بالميدان ثم يجفف بتعريضه للشمس. وكانت الحصة تشتمل علي ما بين اثنين أو ثلاثة أرطال من الخبز، إلي جانب اللحم المقدد أو الجبن. كما كانت تصرف أحيانا كميات من

النبيذ إلا أنه ليس من الواضح كيف كان يتم ذلك وما هي الظروف التي يتم صرفها فيها . وكانت كمية اللحم بالنسبة لباقي التعيين قليلة عادة وربما لا توجد أحيانا . غير أنه يتم تزويد الجند بكميات معقولة من التغذية التي تعتمد علي القمح والشعير بما لهما من قيمة بروتينية عالية بعكس التغذية في العصور الحديثة، ومن الواضح أن التغذية اعتمدت في العصور القديمة والوسطي علي توفير مايلزم خلال الغزو وإن كانت كمية اللحم أقل.

وتميز نمط الحياة في المعسكرات بإشارات صوتية من الطبول أو الأبواق تصدر عند وجبة العشاء. كما استخدمت الأضواء والأبواق وقرع الطبول في إصدار الأوامر لمغادرة المعسكر وتشكيل طابور سير بشكل دقيق، غير أن مغادرة المعسكر كانت تعد دوما من الأوقات الخطرة. فحينما يتدافع الرجال باتجاه المخرج الرئيسي فإنهم يكونون عرضة لسهام العدو أو لهجوم مباغت من خيالته. وتم وضع نظام خاص للمغادرة علي الجند اتباعه، حيث يكون الجند خارج منطقة الخندق بأسرع ما يمكنهم. ويصطف الجميع في تشكيل دفاعي حتى يتم تشكلهم في هيئة سير.

وتختلف سرعة التحرك التي ينطلق بها الجيش طبقا لطبيعة الأرض، والمناخ وعدد ونوع القوات. ويمكن للقوات الراكبة أن تقطع مسافة ما بين أربعين إلي خمسين ميلا في اليوم الواحد. ومن الطبيعي أن تحظي الخيول بقسط من الراحة والتزود بالطعام والشراب. ويمكن القول عموما أن الوحدات الصغيرة تتحرك بشكل أسرع من الألوية الكبيرة. كما يمكن للمشاة أن يقطعوا في اليوم الواحد أحيانا مسافة ثلاثون ميلاً.

كان رتل ثيودور يسير في ثلاثة صفوف متجاورة، في دروب ضيقة تكثر بها الأحراج، يتبعه القوة الإمبراطورية. ويمكن القول أن قسما من ألف فارس سوف يأخذ حيزا يمتد إلي ستة أميال بينما كامل الجيش علي امتداد أربعة عشر ميلاً. لذا ستكون وحدة المؤخرة علي بعد ما يزيد عن الساعة بالنسبة لطليعة القوات.

كانت وحدة ثيودور عند مغادرة المعسكر في الطليعة خلف قوة الاستكشاف المنتشرة في مقدمة الرتل بشكل جيد، في مجموعة الفرسان الرئيسية والمشاة. وكانت قافلة الأمتعة والتي تتناوب القوات حراستها في الوسط. وذلك إلي جانب وحدات حراسة علي مسافة متقاربة محيطة بها. ويسير الجيش في الأرض المفتوحة في بلد العدو بمحاذاة الحدود في تشكيل يمكنه من الانتشار السريع في نظام قتالي وعند عبور الممرات الضيقة أو الأنهار فإنه يتم إتباع تشكيل آخر.

وبينما كانت المسيرة آخذة في التقدم، فإن بعض رجال الاستطلاع عادوا لإبلاغ القائد بأن العدو غير بعيد، قرب حصن بلدة أركاديوبوليس Arkadiopolis حاليا لوليبرجاس Luleburgaz . وتم تكليف الفرق الثلاث بمهام منفصلة: اثنتان تتجهان للتواري خلف الأشجار في المنطقة ذات الأحراج حيث طريق يقود مباشرة إلي مواقع العدو بينما تولي القائد بنفسه قيادة الفرقة الثالثة. تركت الفرقتين خلف الأشجار لتشكلان كمينا وقد زودتا بتعليمات واضحة بهذا الخصوص. بينما شن القائد مع الفرقة الثالثة هجوما غير متوقع علي طليعة العدو من رماة السهام الراكبة البشناق. وعلي الرغم من كثرة عدد قوات العدو فإن القائد عمل علي إغرائهم بالخروج من معسكرهم حيث تظاهر بفقدان النظام بين قواته وأنها بلا خطة واضحة في الهجوم وأن الهجوم كان مشئوما، ويحاول تجنب إحاطة قوات العدو به رغم كثرة عدد الجند البيزنطيين. وحرص أن يبدو الأمر منضبطاً. ووفق التعليمات أعطي سكليروس الإشارة المتفق عليها بواسطة البوق لتعود كل القوات. كانت وحدة تيودور في تلك الأثناء قد استعدت وصدر الأمر أن تبقي صامتة كلية. وأن توضع كل الأمتعة والدواب في الخلف، وأن يتفحص الجنود أسلحتهم وينتشروا في تشكيل قتالي مناسب لأرض المعركة. بينما أدي أحد الرهبان المصاحبين للحملة صلاة سريعة وهي صلاة ما قبل المعركة. وفي الوقت الذي اقتربت فيه قوات الطليعة صدرت إشارة تأمر بالهجوم علي خاصرة العدو الذي أذهلته المفاجأة. واستعر القتال المباشر في العراء ، ولم تكن هناك أدني فرصة لدي البشناق وهم محاربون أتراك من سهوب أوراسيا للانتشار في مساحة تمكنهم من استعمال سهامهم واسقط في أيديهم خاصة بعد أن بدأت قوات الطليعة في شن هجوم مضاد عليهم فاستداروا فارين. بينما الروس والبلغار الذين أردفوا في ذيل الأتراك هالهم ما رأوا من الروم فاستداروا هربا وقد ملئوا رعبا.

وعمت الفرحة، وزفت القوات الرومية إلي الوطن خبر تفوقها، بينما لحقت بصفوف العدو الهارب الخسائر الفادحة . وذكرت مصادر معاصرة أن الروم فقدوا حوالي ٥٥٠ رجلا، وعدد كبير من الجرحى ، وعدد ضخم من الجياد حيث أصيبت بسهام طائشة للبشناق المذعورين. وعلي أية حال فإن قوات التحالف المعادي فقدت عدة آلاف من محاربيها. وقد أثلج هذا الانتصار السريع صدر الإمبراطور يوحنا. وتم تزويده بمعلومات حيوية عن التشكيلات والقدرات القتالية والمعنوية للعدو.

وكالعادة بعد أي مواجهة حربية مع العدو، تم عقد مجلس علي مستوي القادة لمناقشة النتائج وحصر الخسائر خاصة بين الجند من صرعي، وحمل ومساعدة الجرحى والعودة بهم إلي المعسكر الروماني المؤقت حيث يتواجد القسم الطبي والجراحون للتعامل مع أولئك الجرحى

والتي ربما لم تكن إصاباتهم خطيرة . ويبدوا طبيعيا أن عدد الموتى من الجرحى كان أكثر مما مات في الميدان.

وتفيد الأبحاث العسكرية المعاصرة أن التعليمات المعطاة بخصوص الجرحي هي أن يتم نقلهم إلي الأراضي الإمبراطورية مع الرعاية والنقل علي ظهور الدواب حيث لم يعد ممكنا لهم المشاركة في القتال. وهناك بعض الإشارات العرضية في الحوليات الخاصة بتلك الفترة، ما يؤيد ذلك.

وتبين أحد الأبحاث الطبية التي نجت من الضياع، أنه كانت هناك أقساما تتعامل مع مشاكل استخراج رؤوس السهام من الجرحى، والعظام المكسورة والجروح التي تنتج عنها. وتمدنا الحوليات التي ترجع إلي الفترة من القرن السادس وحتى الثاني عشر بروايات عن علاج مختلف الجروح: مثل إزالة رأس سهم من وجه (وقد عاش المصاب) أو أحد الرماح الصغيرة من الرأس وتخلص من الإصابة لكنه مات نتيجة تلوث فيما بعد. وهناك من عولج من جراح عميقة في الظهر والفخذ ، غير أنه مات نتيجة ما نزف من دماء.

وكان ثيودور محظوظا فقد أصيب بجرح وقد رآه ضابط الوحدة عندما أصيب لقد غامر بإنقاذ زميله من رمية سهم لمهاجم بشناقي، واعترافا ببسالته أعطي خاتما ذهبيا (مأخوذ من أحد قتلي فرسان العدو. ورقي إلي رتبة drakonarios حامل راية الوحدة. كان ذلك تشريفا كبيرا له مع بعض الميزات الأخرى في المعسكر ، إلي جانب زيادة بسيطة في راتبه Roga.

أعطت هزيمة قوات العدو وقتا كافيا للإمبراطور ليعد لهجوم كبير، الهجوم الذي يجيء في ظروف أكثر نجاحا مما كان مخططا له في الأساس . وقد شاركت في الهجوم أيضا وحدة تيودور ، وحارب في قوة الميسرة في المعركة التالية في دوروستولون Dorostolon في شهر يوليو عام ٩٧١. وتقاعد تيودور حيث تقيم عائلته في تراقيا ومعه ما أدخر من راتبه وكان قد رقي بالفعل إلي رتبة Drouggarios والتي تعادل رتبة بريجادير وكان متمتعا بلقب إمبراطوري هو kandidatos والذي يتيح له التمتع براتب محترم مدي الحياة، وقام بتوسيع ممتلكاته. وكان في نهايات أيامه شخصية محلية هامة، وتمتع أحفاده بحكايات بطولاته وما رواه عن البرابرة المتوحشين.

العالم علي حافة حرب

"الحرب والسلام"

كان العالم الروماني الشرقي في العصر الوسط مجتمعا تعظم فيه مزايا السلام بينما تلعن الحرب. وكان ينبغي تجنب القتال بأي ثمن. بيد أن الإمبراطورية البيزنطية مع ذلك ورثت تعاليم إدارية عسكرية وبوسائل عديدة ورثت كذلك العقيدة القتالية للإمبراطورية الرومانية غير المسيحية في قمة مجدها. وقد أمكن حل التوترات الناجمة عن طريق إيديولوجية السياسة ـ الدينية وهي رؤية شاملة لتشكل الأفكار المسيحية في جانب مع عدالة الحرب كشر لا بد منه في الجانب الآخر، تشن في الأساس دفاعا عن العالم الروماني والأرثوذكسية، التي تعني حرفيا الإيمان القويم . ومنذ القرن الرابع وخلال الخامس ولد ذلك المزيج من الأفكار في شرق المتوسط ومنطقة البلقان ثقافة فريدة ، والتي تلتزم بإخلاص للنهج والفكر السلمي ، لكنها علي ذات الخلفية يمكنها الحفاظ بجيش قادر وفعال.

وقد لخص بشكل دقيق ذلك الاتجاه في المقدمة لمجموعة التشريعات التي أصدرها كل من الإمبراطور ليو الثالث قنسطنطين الخامس في عام ٧٤١ ميلادية: " لأن الرب وضع في أيدينا السلطة الإمبراطورية .... ونحن نعتقد أنه لا يوجد شيء يمكن أن نفعله أسمي أو أعظم من الحكم بالعدل والقسطاس ، ولذا فإن الرب توجنا بيديه القديرتين بالنصر علي أعدائنا ، تاج النصر ذاك (أثمن وأشرف من التاج الذي نرتدي) وبذا ربما يحل السلام". ومن الواضح أنه كان بإمكان الأباطرة الرومان تبرير حروبهم علي خلفية أنهم كانوا يحاربون للحفاظ علي السلام، أو لتوسيع نطاق العالم المسيحي ، وحماية شعب الله المختار وفق مفهوم روماني مسيحي، حيث تحول دثار الشعب المختار إلي المسيحيين بمجيء المسيح. علي أية حال.

كان هناك تناقض دائم بين مسالمة المسيحية الباكرة، والإمبراطورية الرومانية، لكن كان المسيحي بحاجة للقتال دفاعا عن سيادة الأراضي الإمبراطورية ولاستعادة الأرض المسيحية "المفقودة" والناس. لم تطور المسيحية التزاما أيديولوجيا لشن الحرب ضد الكفار وهو ما لم يفرضه اللاهوت المسيحي ، وحتى إذا كان في بعض الأحيان علي خلفية الغاية ، تحدث الناس وعملوا علي إمكانية إيجاد مشروعية لمثل تلك الحرب . وتبين القوانين الثلاثة عشر للقديس باسيل St Basil تحديدا أن أولئك الذين يحملون السلاح للحرب يجب أن يحرموا من العشاء الرباني لفترة . ومع انتشار المسيحية في أنحاء الإمبراطورية أثناء القرنين الثاني والثالث، تغلبت البرجماتية (الناحية العملية) وبدا أن عددا يعتد به من المسيحيين يخدم ضمن الجيش الإمبراطوري في تلك الفترة.

علي أية حال؛ فأن ذلك لم يبعد صراع المصالح، إن الالتحاق بالجيش يتطلب عبادة الإمبراطور وما يتبعها من طقوس وتقاليد وثنية. وكانت النتيجة أن ملئ تاريخ القرون الثلاثة الأولي للمسيحية، وبصفة خاصة القرن الثالث، بروايات عن الاضطهاد والاستشهاد، لرفض الأفراد المجندين الذهاب إلي الاحتفالات الدينية وحضور الطقوس المرتبطة بالحياة في الجيش. جادل المفكر المسيحي أوريجين في القرن الثالث ـ كحل لتسوية الأمر ـ بأن المسيحيين شكلوا نوعا خاصا من العسكر الذين لا يحاربون من أجل الإمبراطور بذاته، حيث يبتهلون من أجل انتصار الدولة، الأمر الذي يسهل استمرار بقاءهم، وامتداد طائفتهم. إن ذلك الحل الوسط كان استجابة لانتقادات من قبل المعلقين الوثنين حول الجماعات المسيحية ونهجها السلمي.

وفي النهاية كان الجدل حول استمرار وجود الدولة الرومانية الذي أصبح شرطا ضروريا لبقاء وتوسع المسيحية التي حققت قصب السبق، وأدي ذلك إلي المزيد الحلول الذرائعية ، كما سبقت الإشارة. أدي التعاطف الذي أبداه الإمبراطور قسطنطين الأول نحو المسيحية وعماده وهو علي فراش الموت إلي إعادة صياغة حقيقية للفكر السياسي الإمبراطوري علي مدار القرن الرابع مما غير الأمر بشكل درامي. حل تواجد النصرانية بديلا عن عبادة الإمبراطور واحدا من أصعب الموضوعات العاصفة. لقد صار إمبراطورا مختارا من الرب ليقود المسيحيين وصار مقبولا من الشعب الروماني سواء إمبراطور يفترض ألوهيته أم لا، وانبثق عن ذلك الموقف وجهتي نظر: كانت الأولي وجهة النظر الرسمية التي تشجع علي مساندة الدولة ممثلة في شخص الإمبراطور الأرثوذكسي، وكل أعماله. بينما الثانية إعراب رجال الكنيسة عن أملهم في إمكانية تحاشي الصراع، وأن لا ضرورة هناك لسفك الدماء، حيث أقروا بشكل واضح بأحقية الثناء علي المسيحي الذي يحمل السلاح ضد أعداء الدولة.

ومنذ ذلك الحين تقدمت عملية تنصير المجتمع بشكل سريع، بينما هيمن المسيحيون علي الإدارة الحكومية. وهكذا ومع نهاية القرن الرابع صار من المستحيل علي غير المسيحي الحصول علي منصب حكومي. وأصبح الارتباط بين الحرب والمسيحية واضحًا، فالصراع من أجل بقاء الشعب المختار يقوده إمبراطور مختار من قبل الرب. وصارت كل الحروب تشن دفاعا عن المسيحية ومن أجل إمبراطورية مسيحية. وقد تواصلت في ذات الوقت النغمة الدائمة حول الرغبة في السلام، والأسف لحروب ضرورية في الفكر الكنسي والإمبراطوري معا. كما كان هناك أيضا تذكير دائم بالدعم الإلهي الذي تتلقاه الجيوش البيزنطية.

وقد ذكر نص يرجع للقرن السادس أن:" كنا نلح علي القائد أن يصب محور اهتمامه علي محبة الرب والعدالة، وبناء علي هذا فإنه سيبذل أقصي جهده للفوز بمحبته، والتي بدونها لا يقدر علي تنفيذ أي خطة، أو حتى يتغلب علي أي عدو مهما كانت قيمة النصائح المقدمة له، أو ينتصر علي عدوه مهما ظن فيه من ضعف". وظلت تتردد فكرة بعينها طوال الحقبة البيزنطية. أن الهزائم تري علي أنها نتيجة غضب إلهي علي الرومان، الشعب المختار، والتي تعد عقابًا علي خطاياه. ويكون النصر حليفا للجيش الروماني فقط عندما يعود الرومان إلي الطريق المستقيم ويقومون بتصحيح أخطائهم ، وحظيت تلك الفكرة بكثير من التمعن فيما يتعلق بأعمال الأفراد والجماعات عبر تاريخ بيزنطة السياسي كما أثرت علي نظريتها السياسية.

ويمكن القول؛ أنه لم تكن هناك أيديولوجية للحرب المقدسة أي أن تشن الحرب كعمل خاص في ظل شرعية معينه ضد أعداء محددين. وكان للبيزنطيين صورة ذاتية يرون فيها أنفسهم علي أنهم دولة محاصرة تحارب قوي الظلام، عدو يضطرون في مواجهته أن يكونوا حراسا لدولتهم. وأن يطوروا بالكامل وسائل تقنياتهم الدفاعية، التي كانت الحرب محورها الوحيد الضروري والأكثر نفعا.

وبهذا المعني لعله يمكن للمرء القول بأن كل الحروب كانت" حربا مقدسة "، حيث كانت كل أعمال العدو، بمثابة تهديد لأراضي وعقيدة الرومان. وكانت هناك مناسبات تطرح فيها فكرة أن الجند الذين يسقطون في معركة سيكون جزاؤهم الجنة، ولقد عززت هذه الفكرة بعد أن طورت المفاهيم الإسلامية حول الجهاد، والتي كان البيزنطيون مدركون لها تماماً. وهكذا علي سبيل المثال اقترح الإمبراطور نقفور الثاني المعروف إلي حد ما بصفة تقشعر لها الأبدان "القاتل الأبيض للمسلمين" أن ربما يكون من المناسب التمسك بتلك الفكرة لتشجيع الجنود علي القتال. غير أن الفكرة رفضت من قبل الكنيسة ، ولم يتم إحياؤها ثانية. وربما كانت أحد عناصر الاعتقاد الشعبي ، لكن لم تجد اعترافا رسميا بها علي الإطلاق. وهناك صلاة يتلوها الجند قبل السير إلي المعركة سجلها نصان من القرن العاشر وهي تعطي فكرة جيدة عن التوحد بين المسيحي وبواعث القتال:"أيها السيد المسيح ، سيدنا ، أغدق علينا رحمتك ، وكن عونا لنا نحن المسيحيون ، واجعلنا جديرين بالقتال حتى الموت دفاعا عن إيماننا، وعن إخوتنا، قوي أرواحنا ، وقلوبنا وكل أجسادنا، رب المعارك القدير، بحق شفاعة أم الإله الطاهرة، أمك ، وكل القديسين. آمين".

هناك شاهد كبير بين العامة والمسئولين ومقبول من الكنيسة والبلاط، مثلما هو بين الناس البسطاء، منذ القرن الرابع وبقي متواجدا حتى السنوات الأخيرة للإمبراطورية، ألا وهو الحاجة إلي شن حرب، لحقيقة وجود الدعم الإلهي لمثل تلك الحرب، وللحاجة إلي الحفاظ والاعتماد

علي المساعدة الإلهية في شن أي حرب. وعلي الرغم من أن فكرة الحرب المقدسة بالمعني المفهوم لدي الصليبيين أو غير المسلمين كانت تقليدا للنموذج الإسلامي في الجهاد، فإنها حلقت قليلا في سماء العالم البيزنطي، خاصة في سياق الحروب الهجومية البيزنطية في القرن العاشر، ولم تمض أكثر من ذلك.

وكان مفهوما أن السبل التي تسلكها الحروب باسم الدولة الرومانية المسيحية تمضي عبر تطور محدد ، لأنه من الواضح أن البيزنطيين كانوا دوما مدركين لحاجتهم لإيجاد شرعية لحروبهم (شرعنة) . تلك الحاجة التي صارت أكثر إلحاحا في زمن التوسع السياسي والحربي مثلما الحال في القرن العاشر. ومع إمكانية شرعية الحرب فإنه يجب بصفة خاصة تجنب فقد الأرواح في الجانب الروماني أو الإقلال من حجمها قدر الإمكان.

ولقد وصف الإمبراطور قنسطنطين الخامس بالنبيل في حملته علي بلغاريا عامي ٧٧٢ــ ٧٧٣ ، لأن أحدا من جند الرومان لم يقتل في تلك الحرب. بينما في وقت قريب من فراغه من بحثه العسكري أو كتابه المعروف بـ التكتيك tactica ، عبر الإمبراطور ليو السادس بوضوح عن فكرة أن الحرب يجب أن تكون مشروعة بالتوافق مع الأرثوذكسية واستمرارية وجود الدولة الرومانية. وطالما بقيت المصالح الإمبراطورية علي المحك، أيا كان نوعها، فالحرب إذن مقبولة وعادلة. وكانت الحرب مع المسيحيين الأرثوذكس الآخرين متجنبة. غير أن تلك الحرب يمكن القول بشرعيتها إذا تعرضت الإمبراطورية الوحيدة الحقيقية، أي الرومان، لخطر من حكام ضالين في مثل تلك البلاد.

الحرب والمجتمع الروماني

كانت الحرب بالنسبة لكثيرين في العالم البيزنطي عبر تاريخه الطويل شأنا عاديًا، غير أن تأثيرها يمكن أن يتضح بأكثر من سبيل. لنبدأ بالناس العاديين في الإمبراطورية، لقد كانوا يتأثرون مباشرة بالنشاط العدائي لهجمات العدو في المناطق المكشوفة. وعانوا من إتلاف محاصيلهم وتخريب بيوتهم وسرقة أو ذبح دوابهم. وإذا تم الإمساك بهم فمن الممكن قتلهم أو استرقاقهم. ولدينا بعض النقوش الصغيرة الباقية والتي تعود في تاريخها إلي منتصف الحقبة البيزنطية وعثر عليها في مناطق الجبهات في آسيا الصغرى والتي تخلد ذكري أفراد ماتوا نتيجة إصابتهم بجروح في معارك أو غزوات. وتحكي روايات أخري عن أقارب أخذوا أسري، أو فقدوا في الفوضى التي سببها هجوم معاد ولم يمكن رؤيتهم ثانية.

ولقد أدركت النخبة المثقفة تلك الأمور: لقد فرضت الحرب نفسها علي كثير من الحقائق الثقافية والأدبية البيزنطية. وألقت بظلالها علي حياة القديسين، وعلي خطب تقريظ الأباطرة وتأبين الموتى، والقداسات والمواعظ لرعايا الكنيسة، والرسائل الخاصة التي يتبادلها الأفراد.

وكثيراً ما بدرت إلي الذهن كلمات مثل الموت، وفقدان الممتلكات وما إلي ذلك، وقد ألهم الرعب من غزو مفاجئ من قبل العدو في بعض الحالات الفنانين بتصوير مناظره في لوحاتهم. كما ندبت الرسائل غالبا آثار الحرب حيث لا تخلوا من أشارات إلي دموع الأطفال اليتامى والأمهات الأرامل، وإتلاف المحاصيل، ودمار البيوت، والجماعات الديرية، واسترقاق أو موت السكان، وهلاك الدواب وما إلي ذلك.

علي أية حال؛ لم يكن حضور القوات البيزنطية أقل بأسًا. إن تواجد العدد الضخم من القوات تتواجد معه الحاجة إلي دعم وتموينه، فهذه القوات في حالة حرب، يلزمها التزود بالمواد والدواب، ويلزمها مقرات، وثكنات لإقامة الضباط والجنود ، إلي أخره. فحيث يتواجد جيش تبرز المطالب اللوجستية الكبيرة والمكلفة، وليست المسألة متطلبات الجيش من السكان المحليين فحسب، بل أيضا حقيقة تدخل الحكومة في الاقتصاد المحلي التي غالبا ما أثرت علي التوازن الاقتصادي للمناطق. ويمكن أن يأخذ التدخل الحكومي خفضا لأسعار بيع المنتجات للجيش ، مما يضر المنتجين ، أو بطلب مفاجئ وملح لمنتج بعينه ، مما يرفع الأسعار في القطاع الخاص. كما يجبر السكان المحليين علي تصنيع الخبز والبسكويت للقوات ضمن ما يزودونهم به من إمدادات ، أضف إلي ذلك أنهم كانوا عرضة لأعمال السلب والنهب من العناصر غير المنضبطة في الجيش . وبغض النظر عن ذلك ، كان احتمال الصدام قائما بين الجند والمدنيين ، فنادرا ما كانت المحصلة النهائية المادية لترضي المدنيين . وكانت جباية ضرائب إضافية علي الحبوب بمثابة عبء خاص جديد ، وكثيرا ما تكررت الشكوى في الوثائق بهذا الخصوص حول ذلك العبء ، إما نتيجة متطلبات خاصة لحملات معينة أو بسبب احتياجات عملية عادية يقوم بها الجيش في إقليم بعينه . بالإضافة لتلك المطالب ، كان علي مواطني الإقليم أن يوفروا الموارد والأيدي العاملة للحفاظ علي حركة البريد ، من طرق dromos،δρόμος ، وما تحتاجه من محطات وإسطبلات وأعلاف وعناية بالخيول والبغال وما يلحق بها من متطلبات أخري . وكان النظام البريدي يعمل لخدمة احتياجات كل من الإدارتين العسكرية المالية في الدولة ، فقد ساعد في الإمدادات العسكرية ، كما كان منوطا به علي سبيل المثال ، عملية النقل السريع للرسل والموظفين الإمبراطوريين من كل المستويات ، إلي جانب نقل الدبلوماسيين الأجانب ذوي الأهمية . وأيضا نقل أسري الحرب.

وكانت البيوت الملتزمة بتأدية واجبات معينة للبريد مثلها مثل تلك التي عليها واجب دعـم الجنود، معفاة من أية التزامات استثنائية تفرضها الدولة . وكان ذلك الأمر هاما لسلاسة حركـة البريد الإقليمي.

ويمكن أن نلمس طبيعة الأعباء التي ضجر منها سكان الأقـاليم لـدعم الجـيش واضـحة في سلسلة من وثائق القرن العاشر والحادي عشر بصفة خاصـة. وهـي تتكـون مـن مجموعـة مـنح بالإعفاء الإمبراطوري ـ وهي التي كان يلتزم بها سكان الأقـاليم ـ مـن تـوفير ثكنـات الجنـد ، وتزويد المجموعات المختلفة من الفرق أثناء الانتقال بالجياد والبغال والعربات للجيش ، وتسليم الفحم ، والأخشاب اللازمة للأغراض العسكرية.

وتوضح بعض الروايات في الحوليات تفصيلا كل الأنواع التي قد تحتاجها القوات عند شن حملات عسكرية كبري، منها أعداد غفيرة من دواب الحمـل وعربـات، مـواد غذائيـة ومطالـب كثيرة للتزود بكل أنواع المؤن، كل ذلك كان يطلب من المزارعين المحليين الذين كانوا يعانون من كل تلك الضرائب غير المباشرة.

ولم يتأثر السكان الذين عاشوا في الأقاليم أو المدن التي عانت خلال فترات الحرب وحدهم بل تأثر أيضا الاقتصاد، والتوزيع السكاني كذلك، كما هددت الحـرب أيضـا سـيطرة الحكومـة علي ثروات تلك المناطق، في الوقت الذي تأثرت فيه قدرة الكنيسة علي الحفـاظ علـي سـلطتها الروحية والإشراف علي المجتمعات كثيراً. وقد ظهرت علي سبيل المثال بعض مـا يفـترض أنـه ممارسات وثنية ومعتقدات شعبية في النصوص والخطابات في تلك الفترة.

الأثريون والمعلومات المكتوبة عن مشاعر السكان لمرور الغـزاة، أو تحـرك المسـتوطنين إلـي مواقع أكثر أمنا شاهد علي مدي تأثير الحرب علي منـاطق بعينهـا. وتأخـذ تلـك المنـاطق وقتـا طويلا لتتعافي من أثر الحرب. ومرة ثانية، تبين الشواهد مضـي أكثـر مـن ثلاثـة قـرون قبـل أن يتراجع الانهيار الاقتصادي والسكاني. وكانت تأثيرات الحرب أيضا واضحة مع مضي الوقـت علي بنية المناطق الدفاعية ، وتضـاؤل المـدن وهجرانهـا ، وانسـحب ذلـك أيضـا علـي القـلاع والحصون والتي لها قيمتها الإستراتيجية الدفاعية، كذلك الممـرات والأوديـة والجسـور . ووفقـا للتقارير كان يمكن رؤية الأضرار المفزعة للحرب في ميادين القتال ذاتها ، ففي أحـد النصـوص يصف المؤلف كيف أن عظام الجند الذين قتلوا في حرب جرت قبل عدة سنوات يمكـن رؤيتهـا متناثرة علي الأرض التي كانت ميدانا لقتال.

وإذا كانت الحرب قد عطلت الحياة الاجتماعية والثقافية، فهي أثرت أيضا علي أنماط الحياة اليومية. فقد تغيرت موروثات ثقافية في الأقاليم المتضررة من القتال وأعمال العدوان خاصة في الشرق. لقد كان لطبيعة الحروب الموسمية هناك دورًا كبيرًا في هـذا الصـدد، لأنـه في كـثير مـن

المناطق علي جانبي الجبهات الحربية حدث تطور متميز ثقافيًا واجتماعيًا، فنشأت قيم وطرق حياة مختلفة عما في المناطق الداخلية أو المناطق حول العاصمة. وأدي تشجيع التواصل الثقافي علي الجانبين أن تغيرت المؤثرات والموروثات كثيرا عما كانت عليه منابعها الأولي.

وينبغي أن يبقي عالقا في ذهننا أن الجند وعائلاتهم لم يكونوا بمنأى عن تلك المؤثرات التي تعرض لها باقي السكان . لكن بينما كان الآباء يبكون وينتحبون عندما يستدعي أبناءهم للخدمة العسكرية لحظة وداعهم ، فإن أصحاب النفوذ كانوا قادرين بشكل فعال من خلال صلاتهم القوية علي تجنيبهم أداء تلك الخدمة علي خلفية المصاعب الاقتصادية مثلا ! . وعلي أية حال ، كان ذلك المظهر السلبي متوازنا إلي حد ما ، مع وجود وجهات نظر بديلة.

وكان ممكنا استثارة الاستحسان الشعبي والحماسة ، حيث استغل الأباطرة احتفالات البلاط في القسطنطينية لأجل تلك الغاية . مواكب النصر ، والتي يصاحبها عرض للأسلاب والأسري ، ترنيمات الشكر ، وصيحات الابتهال تذكر الأباطرة والحشود الصاغية بواجب المسيحي في الذود عن الأرثوذكسية والإمبراطورية . لقد كان كل ذلك عملا موجها يهدف إلي خلق رأي عام عن الحرب وواجب الإمبراطور لحماية العقيدة . وكان الشعراء مكلفون بقرض وإلقاء القصائد التي تبين شجاعة الإمبراطور ، وقدراته الاستراتيجية ، وانجازاته الحربية : وقد نظم الشاعر جورج البيسيدي George of Pisidia عدة قصائد في المديح في عامي ٦٢٠ و٦٣٠ حول انتصارات الإمبراطور هرقل Heraclius علي كل من الآفار والفرس . بينما مدح ثيودوسيوس الشماس في القرن العاشر بنفس الطريقة انتصارات الإمبراطور نقفور الثاني فوقاس Nikephoros II Phokas.

بينما شارك بعض من أفراد النخبة الثقافة والسياسية بتدبيج رسائل المديح لأعمال الإمبراطور في الحرب، إلي الحد الذي صار فيه تمجيد الأعمال الحربية، والقادة والأباطرة النغمة الأساسية في الشعر والنثر . كانت وسيلة سيئة لكنها ضرورية لتحقيق استحسان يبدو علوياً، وبها تعطي الحروب بريقًا فعالا. وليس بالضرورة أن تلقي وجهات النظر تلك مشاركة من آلاف كثيرة من الفلاحين أو سكان المدن الذين تضرروا كثيرا عبر القرون.

لقد بدا واضحًا في المصادر التي لدينا، إلي أي مدي كانت الحرب أساسا للنسيج الذي شكل المجتمع الروماني المتأخر والبيزنطي معاً. المظهر المادي للريف البيزنطي، والقيم الاجتماعية، والاتجاهات الثقافية ، والإدارة المالية والتنظيم الإداري، وموضوعات الأدب والفن، كل تلك المظاهر الثقافية المختلفة والحياة المادية تأثرت بالطوق الذي كانت فيه الإمبراطورية الرومانية الشرقية وبحاجتها لخوض الحروب.

صورة مواطن

"الفلاح ميتريوس"

أوضحنا في الفصول السابقة آثار الحرب والقتال علي الأفراد، والمجتمعات الإقليمية في أزمان مختلفة، وقدمنا كذلك رؤية المدنيين ومدي إدراكهم لما تعنيه الحرب. إن أحدي مشاكل التاريخ البيزنطي تكمن في حقيقة أن الوثائق والشواهد المكتوبة التي اعتمد عليها المؤرخون لمعرفة آراء الناس واتجاهاتهم، كانت كلها تقريبا من إنتاج أفراد ينتسبون إلي طبقة اجتماعية متميزة. وبذلك فإن ما لدينا هو القليل جدا من حقيقة ما فكر فيه الناس العاديون من فلاحين أو تجار أو صناع أو حتى الجند البسطاء أو تصوروه عن عالمهم.

وبإمكاننا، بالطبع، محاولة معرفة من خلال كتابات المتعلمين شيئا عما كانت علي رؤية واعتقادات غير المتعلمين أو علي الأقل الجزء الذي لا يكتب من المجتمع ، ويمكننا أيضا التوصل من خلال الأنشطة التي قام بها مجموعات في أوقات بعينها معرفة شيئا مما كانوا يعتقدون ولماذا.

ولدينا علي سبيل المثال الأميرة آنا كومننا التي كانت تكتب للفئة القليلة للغاية من النخبة القارئة في بدايات القرن الثاني عشر، حيث تصف السنوات السابقة علي حكم والدها الإمبراطور الكسيوس الأول، مبينة أضرار الحرب التي عانت منها الأقاليم ، وكيف ـ من وجهة نظرها ـ أمكن له إنقاذ الإمبراطورية من مشاكلها :"المدن زالت والأراضي نهبت ، ولطخت الدماء كل الأراضي الرومانية ، البعض مات بائسا ، والآخرون أخرجوا من ديارهم ، وأخذوا أسري، حرب استولي فيها الفزع علي الجميع ، وهم يسارعون بحثا عن ملجأ من كوارث وشيكة إلي الكهوف والغابات والجبال والتلال . وهناك يأخذون في العويل والبكاء علي مصير أصدقائهم ، يبكون فقدان الأبناء ، أو يتأسون لأجل بناتهم ، لم يكن بمقدور أحد علي قيد الحياة في تلك الأيام الانفصال عن آلامه وأحزانه".

ومهما يكن من أمر، فأن أفضل مجموعة للدراسة في هذا الشأن هم الجند، لأنهم كانوا يعملون في تشكيلات ضخمة وظروف معينة، وتتوفر لدينا عنهم معلومات طيبة. ولسوء الحظ، فما يمكن قوله عن المدنيين من خلال الدلائل قليل، ولذلك من الضروري أن نعول علي كم من الفرضيات في هذا الفصل. وكما رأينا في الفصل السابق، كان تواجد الجند في إقليم ما نادرا ـ إن لم يكن دوما ـ ما يلقي ترحاب من السكان المحليين، فيما عدا أن تكون المنطقة وسكانها تعاني من هجمات معادية. وسواء كان الجيش منشغلا في قتال العدو أم لا، فإن كل الجماعات والأفراد لم يسلموا من شر الجند المنفلتين غير المنضبطين.

وقد أجبر أعضاء جماعة ديرية في جزيرة جيمنوبيلاجسيون Gymnopelagesion في المنطقة الإيجية علي هجرة قلاياهم بسبب المطالب المتكررة من قبل سفن الأسطول الإمبراطوري المارة بجزيرتهم بمدهم بالدواب والحاصلات.

وتوجد أمثلة أخري كثيرة ، يتمتع الجنود الأرمن بسمعة سيئة ، في المصادر اليونانية علي الأقل . بسبب عدم الانضباط والسلوك المتدني ، وكان سكان المناطق الريفية البسطاء يفزعون منهم وتروي مصادر القرن الحادي عشر أن فتاة تعرضت للاغتصاب من أحدي الوحدات الأرمينية عند مرورها علي مقربة من تلك الوحدة . وغالبا ما أكد الكتاب البيزنطيون علي حقيقة أن القوات الرومية يمكنها أن تنحي الانضباط جانبا بمهاجمة مناطق إمبراطورية من أجل التزود بالمؤن في حال نقص أو شح مؤنهم . ولقد لخص أحد المعلقين الاتجاه العام للجند عندما أشار بقوله:" أنها مشاكل تواجد الجند ".

وقد شكا في أخريات القرن الحادي عشر رئيس الأساقفة ثيوفلاكت من أوهريد Theophylact of Ohrid في الأقاليم التابعة لبيزنطة في بلغاريا بشكل صارخ من ثقل الجور في مطالب الدولة بالنسبة لمساكن الكنيسة . وكان مهتما بما يتطلبه العمل لإصلاحها ، من ترميم وبناء أو تدعيم . كذلك فإنه كان متشددا فيما يتعلق بالخدمة الإلزامية في الجيش حيث يأخذ الرجال من مناطق تعاني نقصا في السكان . المطالب المتعسفة من قبل مسئولي الخزانة الإمبراطورية غالبا ما كانت سببا في هرب عدد كبير من المزارعين إلي الغابات ، فرارا من مثل ذلك الظلم . بقيت تلك المطالب والمصاعب التي تسببها عبئا ثقيلا علي المزارعين في الإمبراطورية البيزنطية حتى سنواتها الأخيرة.

وكما في الفصل السابق الذي يرسم صورة طبق الأصل لحياة جندي ، فإنني هنا سوف ألقي نظرة علي الحياة اليومية من خلال عيون شخص مبتكر معتمدا علي ماورد في العديد من المصادر مجمعة معا لإعطاء رواية انطباعية : وكل الأحداث التي توصف لاحقا يمكن العثور عليها في المصادر الوسيطة المتعلقة بالفترة من القرن السابع وحتى القرن الثاني عشر . وفي هذا الخصوص فإن رجلنا يدعي ميتريوس وتوجد رواية في القرن العاشر عن مزارع بهذا الاسم من بافلاجونيا.

سنزعم بشكل ما أنه كان مزارعا في مجتمعه بقرية كاتورياكا Katoryaka في بافلاجونيا ، وذلك في منتصف القرن التاسع . وعلي الرغم من أن بلدته كانت تبعد عن البلدة الساحلية الحصينة أماستريس Amastris مسيرة ثلاثة أيام ، إلا أنه نادرا ما كان المزارعون يقومون بهذه الرحلة ، ويرجع ذلك إلي حد ما إلي أن الطرق لم تكن آمنه حيث عصابات صغيرة من اللاجئين يتحركون باتجاه الشمال من المناطق الحدودية المكشوفة ، وبينما استقر الكثيرون منهم

في أو حول البلدات الصغيرة وحصون الإقليم فإنه كانت هناك دائما جماعات قليلة سقطت في حياة الرذيلة بعملهم في قطع الطرق واللصوصية.

ولا يغيب عن البال أن ميتريوس كان باستطاعته أن يزود من إنتاج أرضه تلك القرى القريبة من البلدة بما لا تنتج . وإن محله سيكون قريبا جدا من بلدته . وعلي الرغم من المسافة بين بلدته وأقرب جبهة حربية نشطة فإنها تأثرت بالحرب حيث تقع شرق الطريق الرئيسي من دوريلايون إلي القسطنطينية ، وهو طريق عادة ما يسلكه الجيش . وهذا يعني أن المزارعين يوفرون بشكل منتظم المسكن للضباط وموظفي الخزانة الإمبراطورية ، وللقيادات العسكرية وآخرين ممن يمرون ببلدتهم في طريقهم لأداء واجباتهم.

وعلي الرغم من ذلك الوضع الذي كان مثارا للتذمر ، إلا أن البلدة كانت لا تنعدم لديها الأخبار حيث حضور المسئولين ، مما كان مصدرا للشائعات بسبب اتصالهم بأولئك المارين ببلدتهم في طريقهم لأداء واجباتهم.

والآن مع ميتريوس في بداية أسبوع هام . كان عيد حامي البلدة القديس موكيوس ST Mokios وكان الموروث لدي المزارعين إقامة معرض وسوق واحتفال عظيم يبلغ أوجه باحتفال ديني بحضور الأسقف الذي يحضر خصيصا من أجل تلك المناسبة . ويجذب السوق عددا كبيرا من المزارعين في المجتمعات المجاورة الذين يجيئون للمشاركة في الأعياد ويشاطرون أقرباءهم حيث كانت كثيرات من الفتيات متزوجات من شبان في البلدات المجاورة ، كذلك يتوافد عدد ضخم من التجار والباعة والذين يأتون غالبا من أماكن بعيدة وقد حملوا بضائعهم علي ظهور البغال . ليقوموا ببيع سلعهم التي قد لا توجد مثلها في أي مكان آخر . إنه وقت طيب لأبناء القرية ، ولوقوع القرية علي الطريق الرئيسي فبمقدورهم أن يتبادلوا الشائعات والأخبار ، كما كانت فرصة للصغار لتتوسع مداركهم ، وللشباب والنساء يري كل منهما الآخر.

وكانت المتعة البالغة لغالبية المزارعين زوار المعرض هم التجار خاصة أولئك القادمون من بعيد من أقاليم متعددة في الإمبراطورية وقد جلبوا معهم المنتجات الفاخرة لتلك الأقاليم الحدودية الملابس من بلدات أقصي شرق الإمبراطورية حول طرابيزون ، ومن الجنوب في قبادوقيا المنتجات الجلدية ، والتوابل والأدوية الغريبة من سوريا وأراض بعيدة في الشرق لم يسمع بها أحد من المزارعين الذين لا يزورون حتى أنفسهم . ويعرفون الأخبار من مثل أولئك التجار أو من أحد الرقيق أو أسير سابق لدي العرب والذي قد يكون افتدي نفسه بوسيلة أو بأخرى.

واجه ميتريوس مشكلتان في ذلك الأسبوع ، فقد كان مضطرا في المقام الأول ، أن يأخذ بغليه ويذهب إلي قرية بلايوكاسترو المجاورة ليعود ابن عمه الجريح ، وهو جندي أصيب في حادث ، والذي أخذ علي عاتقه العناية به ، وفي نفس الوقت يشتري بعض المنتجات التي لا تتوافر في قريته ـ وكانت قريته تنتج بوفرة الزيتون وزيته ، لكن قرية بلايوكاسترو تتميز بالنبيذ الجيد، وصعب علي متريوس أن يأتي دون أن يشتري ما يريد . (إن امتلاك متريوس لبغلين هو علامة علي ثراء نسبي ، ذلك أن بغلا جيدا يمكن أن يكلف اثنتا عشر وربما خمسة عشر نوميسماتا ذهبية وهي العملة الذهبية الأساسية ووحدة الحساب في العالم البيزنطي) . إضافة إلي ذلك فقد تم إعلامه من قبل مسئول حكومي مر به أن عليه الاعتناء بضابط وحدة عسكرية مارة بالقارة خلال أسبوع الاحتفالية . كانت تلك مشكلته الثانية ، حيث يجب أن يوفر الطعام والمبيت لزائره والخادم الخاص به ، وكذلك إطعام جواديهما ، وإن أراد أن يتحاشى المشاكل يجب أن يتأكد أن ضيافته مقدرة من قبل الضابط المسئول.

غادر متريوس بيته عقب الفجر ، ذلك أن رحلته إلي قرية بالايوكاسترو تستغرق ست ساعات تقريبا . وحالما انتهي من زيارة ابن عمه في الحامية التي يعالج فيها من الحادث ، قام بترك بغليه لبعض الجند ، وقد دفع لهم نظير شرابهما والعناية بهما . وبعد ذلك هبط التل متجها إلي القرية ، حيث توقف ليحتسي خمرا مع بعض معارفه في حان بنزل الضيافة بالقرية . وهناك استراح حتى تلطف الجو وذهب قيظ الظهيرة ، ثم لعب دورين من لعبة تافلي Tavli (باكجامون) ثم تناول وجبة خفيفة ، قبل أن يقفل عائدا إلي الحصن حيث ابن عمه وبغليه.

وقرب المساء قام بوضع ما اشتراه من نبيذ علي جانبي احدي البغلين داخل كيس كبير من الجلد وشرع عائدا إلي بيته. كان الوقت متأخرا حيث حتما سيقضي النصف الثاني من رحلته في عتمة الليل، وقد أعطي الخوف من اللصوص علي الطريق متريوس وابن عمه بعضا من الحذر، علي الرغم من أن الأخير كان يحمل معه سيفه ورمحه . ولكنهما سلكا الطريق بأمان ففي ذلك الوقت من السنة بصفة خاصة كان لا يزال هناك عدد من المسافرين معظمهم يشق طريقة إلي سوق البلدة حيث سيقام بعد يومين.

كان أمام متريوس يوما للإعداد قبل وصول ضيفه العسكري غير المدعو . ولدي وصول متريوس إلي البلدة كانت هناك جلبة شديدة. ويبدو أنه أثناء غيابه عنها كانت عربة تقل موظفين من الخزانة الإمبراطورية قد وصلت وقامت بتقديم سلسلة من المستندات لزعيم البلدة، تعلم المزارعين أنه بسب الحملة العسكرية المتوقعة في الصيف، فإن عليهم إنتاج المزيد من القمح وزيت الزيتون لتموين الجيش. وكانت البلدة قد دفعت الضرائب العادية المفروضة للعام . لذا

فإن هذا الإلزام يأتي كما يبدو مع إقامة الاحتفالية. ولم تكن كاتورياكا مجتمعا فقيرا بعكس أولئك الذين في أعالي الجبال جنوبًا، لذا فإنه يمكن تدبر تلك الأعباء دون معاناة.

ولسوء الحظ، فإن ضابط الضرائب المسئول عن تلك الالتزامات الزائدة، كان مكروها، قام بفرض مطالب أزيد ، فيما يتعلق بضيافته وهدايا من القرية. ولم يكن أمام أهل القرية من خيار سوي الدفع ليتخلصوا منه ومن حراسه العسكريين ومن وحدات نظامية كانت مارة بالقرية . ولكن الرجل قرر إطالة إقامته ليشهد الاحتفالية.

وصل الضابط الضيف عشية يوم المعرض. وقد حيا متريوس وزوجته وابنته الضابط بأدب، أما ابن متريوس فكان قد تزوج منذ سنوات خلت وانتقل إلي بيته في الجانب الآخر من البلدة. وبعد أن قدم متريوس لضيفه الشراب والخبز قاده إلي مكان إقامته . بينما استقر خادماه خارج البيت حيث المخزن والذي يستخدم أحيانا كمأوي للبغلين . ولحسن الحظ بدا الضابط محببا، كان نوعا من الرجال لا يطلب أكثر من الواجب ، مما أراح إلي درجة كبيرة أسرة متريوس خاصة الابنة : حيث كانت سمعة العسكر وبصفة خاصة الضباط معروفة جيداً.

وفي ذلك المساء ذهبت الأسرة بمصاحبة الضابط إلي كنيسة القرية لحضور القداس الافتتاحي للاحتفالية، وليروا تدشين عيد حامي القرية. وكان كاهن البلدة متعلما نسبيا بما يكفي لمثل ذلك العمل واختار نصا لعظته من كتابات اناستاسيوس السناي Anastasios of Sinai وهو أحد القديسين المشهورين كان علي قيد الحياة منذ قرنين من الزمان ، ولا ريب في أن نقص التقوى وقلة الاكتراث بالشعائر ما يضر بالروح وقد ينشغل الرجال بتفرس النساء بالقاعة (أو في الخلف من الكنيسة كما في حالة هذه القرية). ويدردشون أو يناقشون موضوعات الأعمال وربما النميمة ويتجاهلون الكاهن ، ويندفعون مع نهاية القداس وكأن كلاب صيد تطاردهم.

كانت الجموع تستمع بانتباه وهدوء ظاهرين، ولكن تفكيرهم في الإعداد للاحتفال كان أشد ، والاندفاع لمغادرة الكنيسة في نهاية القداس كان هو ما لا يحب الأب إفتيميوس Efthymios رؤيته. وقد افتتح الاحتفال في اليوم التالي وقد امتلأ ميدان القرية الرئيسي بأكشاك تقدم كل أنواع البهجة والبضائع ، شئ تراه القرية في الغالب لمرة واحدة أو مرتين في السنة. ولم يفوت ابن عم متريوس الجريح والذي مكنته الحرب من السفر إلي أماكن بعيدة الفرصة فراح يحكي لأهل القرية أنه شاهد تلك البضائع من قبل ، بالطبع عندما كانت وحدته تعمل في القسطنطينية أو تراقيا أو في الساحل الجنوبي للأناضول.

وعلي الرغم من حضور الجند، فإن الحدث مر دون مشاكل فيما عدا تواجد موظف الخزانة المتغطرس والمثير للضجر . لكنه رحل وبطانته بعد ثلاثة أيام ، حيث كانوا مضطرين للتحرك لعمل ترتيبات مماثلة لتموين الجيش في القرى المجاورة كما كانوا يريدون بشكل قاطع العودة إلي منازلهم في عاصمة الإقليم آماستريس Amastris . وبلغ الاحتفال ذروته بقداس عقد يوم الخميس علي شرف القديس موكيوس بعد إقامة احتفال ضخم في ميدان القرية صاحبه كثير من المرح والرقص والموسيقي.

وقد اهتبل متريوس الفرصة التي وفرها السوق لبيع بعضا من منتجاته الخاصة للجنود والموظفين كما لبعض التجار. وكانت معظم مبيعاته من زيت الزيتون عالي الجودة، بلغت حوالي من ست إلي سبع جالونات، والتي باعها تقريبا بأربعة نوميسماتا من الفضة والذهب، وكان مبلغا كافيا حقا ليغطي جانبا من ضرائبه للعام القادم والتي يبدو أنها ستجبي نقدا، (والحكومة تجبي الضرائب حسب احتياجاتها أحيانا تكون عينية وأخري تكون نقدية). ومعدل دخل العامل علي سبيل المثال يتراوح ما بين تسع إلي اثني عشر نوميسماتا في العام. بينما يتلقي الجندي بالإضافة إلي موارده وأشياء أخري تزوده بها الحكومة حوالي اثني عشر نوميسماتا في السنة ولا يشمل هذا ما قد يحصل عليه الجند ملاك الأرض من دخل طيب بينما يتلقي الضباط مبالغ محترمة.

وقد أحرز متريوس نجاحا في بيع منتج وحيد. ومع افتراض أن الحكومة لن تفرض علي نشاطه التزامات جديدة ، فإنه في العام القادم سيكون قادرا علي شراء قطعة أرض بجوار مزرعته، ويزيد من إنتاجه، وربما قام باستئجار أحد فقراء قريته للعمل باليومية خلال مواسم حرث الأرض وبذر الحب والحصاد.

ولعل متريوس كان مثل باقي المزارعين البيزنطيين في تلك الفترة ولكن الأغلبية كانت تمتلك أقل مما أمتلك. فقد كانت أملاكه ميراثا من أبيه وعمه الذي لم يعقب ذرية (قتل أحد أبنائه خلال خدمة العسكرية. بينما الثاني مات في التاسعة بسبب إصابته بالحمى بينما ماتت الابنة في سن الطفولة) وكان هناك الكثيرون الذين استأجروا الأراضي بإيجارات عالية من كبار الملاك المحليين ليتمكنوا من أداء الضرائب للدولة. لكنهم بالتالي كانوا يدفعون أجورا خاصة مرتفعة للملاك.

وبينما كان الأغنياء من موظفي الحكومة وعائلاتهم يشترون الأرض والمناصب وتزداد قبضتهم علي المواقع المهمة في الحكومة والأقاليم ، فأن الموقف العام لسكان الريف ازداد سوءا حيث رفع ملاك الأرض إيجاراتها وزادت الحكومة في فرض ضرائب أكثر لتتمكن من الحفاظ علي إدارتها وتمويل الجيش . لكن ذلك كان في قرن تال علي زمن متريوس.

كان هناك العديد من الحرف والأعمال التجارية ، وبطبيعة الحال عرضنا للتجار ومتاجرهم وفيما يتعلق بأصحاب الحرف في القرى فهناك حرفيون مثل الحداد والخزاف و المشتغلون بالجلود ، أما في المدن الكبرى فإن سكانها عملوا بحرف متنوعة بدءا من صاغة الذهب والفضة إلي القصاب والخباز وتجارة الملابس ، والأصواف ، والصباغة إلي جانب استيراد وتوريد الحرير ، وتجارة الألبان ، وكل المواد الغذائية الأخرى ، وكل السلع والمواد التي تتوقع أن تجدها في المدن الكبرى . حتى الطفرة الاقتصادية التي تمت في القرنين الحادي عشر والثاني عشر.

وعلي أية حال؛ فإن تلك الأنشطة الحضارية كانت قاصرة في الغالب علي مدن رئيسية قليلة مثل القسطنطينية و تسالونيك وطرابيزون في الجنوب الشرقي لساحل البحر الأسود . أو في أتاليا Attaleia في جنوب ساحل شبه جزيرة آسيا الصغرى. ومع ذلك تأثرت كل تلك التطورات بطرق أساسية بحقيقة أن الحرب كانت الحالة الطبيعية للأمور بالنسبة لكثير من السكان في جانب كبير من أرجاء العالم البيزنطي في غالب الأوقات.

كيف انتهت الحروب

"موت إمبراطوريـــــة"

حافظت الإمبراطورية البيزنطية علي بقائها علي مدي ٥٠٠ عام ، منذ العام ٦٠٠ ميلادية، ونمت بشكل سريع بعدت فيه عن جذورها في الإمبراطورية الرومانية المتأخرة. ولقد حدثت كثير من التغيرات الجوهرية في مداها الجغرافي ونظمها الإدارية وبنائها الاجتماعي، وبقيت حتى بواكير القرن الثالث عشر بشكل يدل علي أنها منحدرة من صلب إمبراطورية جستنيان الرومانية الشرقية. وبغض النظر عما حدث ن تحولات سياسية واقتصادية في القرن الثاني عشر، فإن الإمبراطورية واجهت في منتصف القرن الحادي عشر تحديات كان عليها أن تغير من سياستها واستجابتها بطرق ناجحة. لقد كانت هناك اختلافات ثقافية عميقة، وتباين متزايد بين عالم يوناني شرقي البحر المتوسط وجنوب البلقان من جهة، وبين الأراضي الخاضعة للآتين في وسط وغرب أوربا من جهة أخري. والتي أخذت في الازدياد خلال القرون الثامن والتاسع والعاشر. وازداد الأمر سوءا بنمو الاقتصاد الغربي، في الوقت الذي بدأت فيه الاعتداءات السياسية والحربية تمثل مشكلة خطيرة للدولة الرومانية الشرقية في العصور الوسطي. مع ما مثله كل من النورمان من جهة والأباطرة الجرمان من جهة أخري من تهديد لسلطة بيزنطة السياسية وهيبتها في البلقان، ونمو التحدي لقوة بيزنطة البحرية من مراكز التجارة الإيطالية مثل البندقية وجنوة، إلي جانب ما مثلته الحركة الصليبية من تصور غربي مجحف عن الغدر والعجز البيزنطي نتيجة التوسع السلجوقي في آسيا الصغرى وهو الأمر الذي حول التحالف إلي نفور والشك إلي صراع مفتوح. وهو ما يعني أن التهديد الحقيقي لم يعد يأتي من العالم الإسلامي في الشرق وإنما من الغرب المسيحي.

وجاء البيان الواضح لتغير ميزان القوي في شكل الحملة الصليبية الرابعة. كان الصليبيون في تلك الحملة قد هدفوا إلي مهاجمة مصر. لكنهم وجدوا أنفسهم مدينون دينا ثقيلا للبنادقة الذين أجروا لهم السفن، وزودهم ببعض احتياجاتهم المالية من أجل هذه الحملة. كان البنادقة يتحينون الفرص للتدخل في الوضع المرتبك في القسطنطينية لكي يدعموا ميزاتهم التجارية هناك ويمكنوا لأنفسهم في السيطرة علي تجارة شرق البحر المتوسط.

وكان حضور المطالب بالعرش الإمبراطوري الكسيوس الرابع أنجيلوس إلي البندقية مما جعل مهمة البنادقة في طلب تحويل الحملة الصليبية إلي القسطنطينية عام ١٢٠٣عملا سهلاً. وقد وصل الجيش الصليبي إلي أسوار العاصمة البيزنطية بالفعل، ونجح في وقت قصير في تنصيب الكسيوس الرابع كشريك للإمبراطور مع أبيه الأعمى إسحاق الثاني، وكان الأخير قد

عزل من قبل الكسيوس الثالث وقد هرب من المدينة وأحضر إسحاق الثاني من سجنه. ولكن بعد تنصيب الكسيوس الرابع وجد نفسه غير قادر علي دفع ما وعد به الصليبيين من مكافأة نظير تنصيبه ولأن الوضع كان سيئا فإنه وجد نفسه في عزلة، وتم عزله في بداية عام ١٢٠٤. وكان مقتله علي يد الكسيوس الخامس دوكاس مما زاد الوضع سوءاً. غير أن الإمبراطور الجديد قام بتقوية دفاعاته، حيث تمكن في البداية من التصدي لهجوم صليبي. لكن ذلك لم يدم طويلاً حيث سقطت المدينة في أيدي الصليبيين في الثاني عشر من أبريل عام ١٢٠٤. وكانت الأسلاب غاية في الكثرة لدرجة أن شاهد عيان أكد أنه لم يشاهد مثلها منذ خلق الله العالم. نهبت المدينة المليئة بالأغراض الثمينة والتماثيل وحلي الطقوس والاحتفالات والأغراض التي لم تتعرض من قبل للنهب بلا رحمة علي مدار ثلاثة أيام. كما جري دمار عنيف فدمرت كثير من الأعمال الفنية، وصهرت الأشياء المعدنية أو سرقت. أن بعض تلك الأعمال العظيمة يمكن رؤيتها اليوم في البندقية.

ويمكن القول؛ أن سقوط القسطنطينية كان بمثابة مبرر نهائي للشقاق بين الشرق والغرب. لأن البطريركية اللاتينية لم يكن معترف بها من قبل الشعب الأرثوذكسي في القسطنطينية أو الأقاليم البيزنطية السابقة. وكان انتخاب البطريرك ميخائيل اوتريانوس في نيقية عام ١٢٠٨ معترفا به كبطريرك فعلي للكنيسة البيزنطية.

وبعد سقوط القسطنطينية، ومقتل الإمبراطور الكسيوس الخامس. تم اختيار إمبراطوراً لاتينيا، هو بلدوين الفلاندري. وكانت أرض الإمبراطورية قسمت بين المنتصرين حيث كوفئت البندقية بأقاليم متميزة ومناطق ساحلية. بينما قسمت اليونان بين حكام عدة فأقيمت في البلوبونيز إمارة آخايا ودوقية أرشيبلاجو، ومملكة تسالونيك، ودوقيتا أثينا وطيبة.

وعلي الرغم من تلك الكارثة، بقيت الإمبراطورية البيزنطية علي قيد الحياة. وظهر مطالبون بالعرش. فأقام فرع من عائلة أنجيلوس إمارة مستقلة في غرب البلقان هي إمارة إيبروس والتي استمرت حتى القرن الرابع عشر. أما آل كومنين فقد حكموا مناطق في وسط البندس، حيث ظهرت فيها إمارة طرابيزون. وفي نيقيا حكم النبيل قنسطنطين لاسكاريس حيث مارس سلطانه علي كثير من المناطق في غرب آسيا الصغرى. وقد تطورت إمبراطورية نيقيا وكان أول إمبراطور لها هو تيودور أخي قنسطنطين صهر الكسيوس الثالث وبذا صارت له شرعية مؤكدة. وبعيداً عن تلك المناطق كان كالوجان Kalojan قيصر البلغار يعمل علي تأسيس دولة مستقلة للبلغار. وقد أمكنه أسر الإمبراطور اللاتيني عام ١٢٠٥ بعد أن سحق بشده جيشه، وفي عام ١٢٣٠ كان البلغار مصدر تهديد لإمارة ايبروس البيزنطية إلي حد الانكماش والتبعية.

كانت الإمبراطورية اللاتينية التي أقيمت في القسطنطينية يكتنفها مصير حالك. لقد حاول حكام ابيروس بمساندة من الإمبراطور الألماني فريدريك الثاني، وفيما بعد ملك صقلية مانفريد من تحقيق التوازن في البلقان بقصد استرداد القسطنطينية. لكن أباطرة نيقية كانوا في وضع استراتيجي وسياسي ونجحوا في صنع تحالف مع جنوه. وبذلك أحرزوا التوازن في القوي مع البندقية في المجال البحري. وفيما بين عامي ١٢٤٠ و١٢٥٠ أمكن لهم مد ممتلكاتهم في جنوب البلقان، واستعادوا مساحة كبيرة من الأراضي من حكامها الفرنجة. وفي آسيا الصغرى كان الاستقرار علي الجبهة مع السلاجقة قد تحقق لبعض الوقت. وفي عام ١٢٦١ استغلت قوة نيقية صغيرة فرصة غياب الحامية اللاتينية في القسطنطينية حيث لمشاركتها في أحد الحملات وتمكنت تلك القوة من دخول المدينة وأعادتها إلي الإمبراطورية. ومرة ثانية صارت القسطنطينية عاصمة للإمبراطورية الرومانية الشرقية.

وبنهاية القرن الثالث عشر فإن أجزاء من وسط اليونان صارت مرة أخري بيد البيزنطيين. كذلك سيطروا علي كثير من المناطق وسط وجنوب شرق البيلوبونيز. ومع ذلك فإن القرنين الأخيرين من الحكم البيزنطي في آسيا الصغرى وجنوب البلقان شهدا ضياع آسيا الصغرى، وتدهور الإمبراطورية إلي حد الخضوع لسطوة السلطنة العثمانية الفتية. وببساطة، فإن الإمبراطورية لم تكن تملك الموارد للقتال علي جبهات متعددة أو حتى علي أحدها لوقت قصير لما في ذلك من عبء فوق طاقتها. وكانت إيديولوجية السياسة الإمبراطورية تحث علي استمرار البحث من قبل الأباطرة عن سبل استرجاع الأراضي السابقة والمجد المفقود. وبدا لفترة في النصف الثاني من القرن الثالث عشر وتحت حكم الإمبراطور القدير ميخائيل الثامن (١٢٥٩ــ ١٢٨٢) أن الإمبراطورية أحرزت عدة نجاحات، وكانت قادرة علي التوسع في البلوبونيز وفرض الطاعة علي الإمارات الإفرنجية في الإقليم.

لقد تمكنت الإمبراطورية بفضل التحالف الذي تم مع جنوه ومملكة أراجون وإلي حد ما البابوية من أن تؤثر في المشهد الدولي مرة أخري، وأن تقاوم القوة التي تعمل تدميرها وتفتيتها. غير أن الأوضاع الدولية سرعان ما بدت أكثر سوءا بسبب تحول اهتمام الإمبراطورية إلي القسطنطينية، في الوقت الذي أهملت فيه الأقاليم الآسيوية التي شهدت في لحظة حرجة للغاية مقدم المغول إلي شرق آسيا الصغرى. فبينما أوهنوا قبضة السلاجقة في السيطرة علي القبائل التركمانية البدوية، أطلقوا في الوقت ذاته أيدهم للوصول إلي المناطق البيزنطية الواهية الدفاعات. وبمقدم عام ١٢٧٠ تم فقد معظم الأقاليم الساحلية الجنوبية الغربية والوسطي. بينما صارت المناطق المتبقية تحت تهديد الإمارات التركية المستقلة والقوة العثمانية الغرة. وبمنتصف العام ١٣٣٠ تم فقدان المناطق الإيجية . وكانت شركة المرتزقة الكتلان الكبرى، الذين استأجرهم

الإمبراطور اندرينيقوس الثاني عام ١٣٠٣ لمساعدته في محاربة الأتراك وباقي الأعداء قد انقلبوا علي الإمبراطورية وذلك عندما لم يوفوا ما لهم من أجر. وبعد أن هزموا دوق أثينا البرجندي في عام ١٣١١ سيطروا علي الإقليم وظل في قبضتهم حتى عام ١٣٨٠. وحذت شركات مرتزقة أخري نفس المسلك. وسرعان ما توفرت للإمبراطور الموارد التي تمكنها من صد هجمات معادية صغيرة العدد. كما أمكنها أن توفر المال اللازم لاستئجار مرتزقة يمكنها الاعتماد عليهم في الدفاع عن نفسها. غير أنه عام ١٣٩٠ سقط آخر حصون الإمبراطورية في آسيا الصغرى بأيدي العثمانيين. ويمكن أن يعزو الفشل الإمبراطوري في جانب منه إلي الحروب الأهلية الضارية التي أضرمت بين حزبي الأسرة الحاكمة عبر سنوات متتالية كانت أولاها من عام١٣٢١ واستمرت حتى عام ١٣٢٥ ثم ما لبثت أن تفجرت في العام ١٣٢٧والعام ١٣٤١.

وتجدر الإشارة إلي أن الحاكم الصربي اسطفان اورش الرابع دوشان اتخذ صف أحد الجانبين المتحاربين بينما استعان الآخر بالمرتزقة الأتراك لمساندته في القتال واستنفذ الصراع الثروة علي قلتها واضطر السكان من ريف وحضر مع استمرار الصراع لبذل المال لأجله رغم استياؤهم ولم يفلحوا في رأب الصدع بين الجانبين . والذي انتهي بانتصار الإمبراطور يوحنا السادس كانتاكوزينوس في ١٣٤٦ كان يوحنا مدعوما من حزب الكنيسة الذي تبني بشدة سياسة مناهضة للغرب ،تلك السياسة التي كان لها نتائج هامة في المجال السياسي والثقافي البيزنطي في القرن الأخير . غير أن الإمبراطورية كانت في موقف يائس سياسيا واقتصاديا حيث استولي الصرب علي ألبانيا ، وكل ما تبقي لها تراقيا وما حول القسطنطينية ومنطقة صغيرة حول سالونيك(محاطة بالصرب) وأراضيها في البليبونيز وجزر شمالي بحر إيجه وعملت كل منطقة كإقليم مستقل بشكل صغر أو كبر وبذا كانت بيزنطة إمبراطورية بالميراث والاسم فقط . وقد حطمت الحروب الأهلية اقتصاد تلك المناطق والتي وفرت بالكاد أدني قدر من الضرائب التي فرضها الأباطرة . وكانت جالاتا المركز التجاري للجنيويين علي الجانب الآخر من القرن الذهبي من القسطنطينية تدر عائدا سنويا يمثل سبعة أضعاف دخل المدينة الإمبراطورية نفسها . وأمكن للعثمانيين أن يؤسسوا لوجودهم في أوربا في الوقت الذي كانت تدور فيه الحروب الأهلية من أجل يوحنا كانتاكوزينوس . ومع بداية القرن الخامس عشر لم تبق ممتلكات إمبراطورية في اليونان فيما عدا بعض المناطق المحدودة في البلوبونيز وقليل من جزر بحر إيجه.

أدي التقدم العثماني في أوربا إلي انقراض سريع للإمبراطورية البيزنطية. وقد هزم العثمانيون كلا من الصرب والبلغار وأخضعوهما في نهاية القرن الرابع عشر. وتجدر الإشارة إلي أن تقدم العثمانيين في بيزنطة أثار قلقا لا يستهان به في الغرب . وقد نظم سيجسموند ملك المجر حملة صليبية بقيادته، غير أن جيشه هزم هزيمة ساحقة عام ١٣٩٦ في موقعة نيقوبوليس.

حاول البيزنطيون لعب أدوار متعارضة ، وذلك بدعم الدول الغربية أو العثمانيين . حيث تبني بعض البيزنطيين حلا سهلا بالتفاوض حول وحدة الكنائس الغربية والشرقية والذي سيجلب معه تبعية القسطنطينية لروما غير أن الأديرة والعامة من الفلاحين كانوا معادين بشدة ومرارة لمثل هذا الحل الوسط . بينما رأي البعض أن التبعية للأتراك أفضل من الوحدة مع اللاتين الحاقدين . ولم يمكن لأي من الجانبين أن يفرض رأيه علي أرض الواقع في الوقت الذي كانت فيه القوي الغربية فاترة الشعور فيما يتعلق بالاقتران بالإغريق.

وبدأ السلطان بايزيد في عام ١٤٠١ الاستعدادات لحصار القسطنطينية، غير أن المدينة أنقذت في اللحظة الأخيرة ، بظهور قوات المغول بقيادة تيمورلنك ، المعروف في الإنجليزية باسم Tamburlane حيث قام بغزو آسيا الصغرى ، ودمر القوات العثمانية في معركة أنقرة عام ١٤٠٢[١]. واستغل البيزنطيون الفرصة لتدعيم سيطرتهم في البلوبونيز ، غير أن الفرصة كانت قصيرة الأمد . فقد مات تيمور بعد وقت قصير من انتصاره علي بايزيد وسقطت إمبراطوريته في نزاع داخلي مرير . بينما استعاد العثمانيون سلطانهم ، ووطد السلاطين نفوذهم في الأناضول وشرعوا في مد ذلك النفوذ علي البلقان.

وحاول الإمبراطور يوحنا الثامن جمع التأييد الغربي في مواجهة الخطر الإسلامي حيث طاف بأرجاء أوربا بلا جدوى . وبلغ به الأمر إلي حد القبول في مجمع فلورانس عام ١٤٩٣ بالوحدة مع الكنيسة الغربية . وقادت المحصلة النهائية لجهد الإمبراطور إلي حملة صليبية انتهت بكارثة وبيلة في معركة فارنا في بلغاريا عام ١٤٤٤. وفي عام ١٤٣٥ شرع السلطان محمد الثاني في حصار القسطنطينية . وعلي الرغم من معاناة دفاعات المدينة من قلة الصيانة إلا أنها بقيت فعالة وقوية . واستمر الحصار عدة أسابيع قبل أن تتمكن القوات العثمانية من المزودة بالمدفعية الثقيلة من إحداث ثغرات خطيرة ، وتواجه الحامية الصغيرة . وعلي الرغم من الجهد الخارق من جانب القوات البيزنطية وحلفائهم الغربيين والذين لا يمكن حصرهم فقد تم في النهاية اختراق الأسوار من قبل وحدات النخبة Janissary في ٢٩ مايو ١٤٥٣. وقتل آخر أباطرة بيزنطة قسطنطين الحادي عشر وهو يحارب عند الأسوار ، خلال قيادته هجوما مضاداً، ولم يعثر علي جثمانه أبدا. وفيما بعد تناولت أسطورة يونانية الأمر مثلما الأسطورة البريطانية عن الملك آرثر وروت أنه لم يمت وأنه سيعود يوما ليقود شعبه إلي النصر.

---

[١] – كان بايزيد يطمح في إقامة إمبراطورية عالمية إسلامية، لذا فقد اتجه نحو الشرق . مما أغضب عاهل المغول تيمور لنك الذي شن هجوما كبيرا علي العثمانيين ، ونجح تيمور لنك في إيقاع هزيمة مروعة بالأتراك في معركة أنقرة عام ١٢٠٤، كما أمكنه أسر السلطان بايزيد نفسه ، الذي مات في الأسر بعد عدة أشهر أنظر: هسي : العالم البيزنطي ، ص٢٢٣ ، أيضاً: حاتم الطحاوي: مقدمة كتاب نيقولا باربارو : الفتح الإسلامي للقسطنطينية ، القاهرة ٢٠٠٣، ص ٢٩.

أيا ما كان الأمر، فقد صارت القسطنطينية العاصمة الجديدة للعثمانيين تحمل الاسم التركي استانبول (من اليونانية Eis tin polin ـ في المدينة). وسرعان ما خضعت الجزر الإيجية الباقية للإمبراطورية لسيطرة الحكم العثماني. فسقطت إمارة جنوب البلوبونيز وإمارة موريا في عام ١٤٦٠، كما سقطت طرابيزون مقر آل كومنين في يد الجيش التركي عام ١٤٦١ ولم يعد هناك بعد ذلك التاريخ وجود للإمبراطورية الرومانية الشرقية أو بيزنطة.

الخلاصة والنتائج

"الحرب ـ السلام ـ البقاء"

بقيت الدولة البيزنطية كقوة هامة في منطقة البلقان حتى أواخر القرن الثاني عشر، لأنها امتلكت جهاز مالي فعال، مكنها من دعم جيشها ، والإبقاء علي كفاءته وتنظيمه بشكل جيد . وكانت التحولات والتغيرات الكثيرة في الموقف الدولي، والتطور الداخلي للعلاقات الاجتماعية والاقتصادية عوامل قد سارعت باضمحلال الإمبراطورية في القرن الثالث عشر ثم الانهيار والاختفاء في القرنين الرابع عشر والخامس عشر.

وكان نظام الدعم اللوجيستي الذي حافظت عليه حتى النهاية تقريبًا، من أحد الأسباب الهامة وراء بقائها الطويل، ونجاحها في الدفاع عن أرض محاطة بالأعداء من كل جانب. وقد سمح لها ذلك النظام أن توزع مواردها من الأرض علي جيوشها وفقاً لحاجاتهم، وتخطط مقدما لمتطلبات الأعمال الهجومية، وتعرقل استيلاء العدو علي تلك الثروات ولتجعل الظروف في مواجهة العدو علي أراضي بيزنطة صعبة قدر الإمكان.

ولقد ضمن النظام الضريبي زيادة الموارد من حيث النوع وفي الوقت والمكان المناسبين، حيث توافر السيولة اللازمة لشراء متطلبات الجند المرتزقة، وتوفير الدواب، وما شابه. وطبيعي ألا يكون ذلك النظام مجديا طول الوقت ، كما قد يفهم. فغالبا ما حقق القليل لصالح الجيش بعكس النخبة الاجتماعية التي كان بإمكانها استغلاله لصالحها ، فقد عملت كل الأجهزة بشكل أضر بالسكان الذين عانوا من المطالب المتزايدة لدولة بيروقراطية.

ولقد لعب النظام التكتيكي والانضباط دورًا هامًا، حيث لقيا الاهتمام من قبل البيزنطيين أنفسهم كعنصرين أساسيين للنجاح علي المدى البعيد، كما أدرك البيزنطيون ما يمكن أن ينجم عن إهمال هذين العاملين، والتفريط فيهما. وهي حالة فريدة تميزت بها العسكرية البيزنطية.

وتجدر الإشارة إلي أن الجيوش الإسلامية أيضا كانت منظمة جداً ، وتعمل في ظل انضباط صارم. ولقد أدرك الصليبيون ـ في أخريات القرن الحادي عشرـ وبشكل سريع أهمية التشكيلات الخاصة، والانضباط التكتيكي المحكم في التعامل مع الحركة السريعة، والضربات الموجعة للخيالة السلاجقة حملة السهام. وكان من الواضح أن بيزنطة بلغت حد التفوق علي جميع أعدائها في هذا المضمار ظلت تحافظ عليه حتى القرن الحادي عشر حتى وإن لم يعطي التكتيك الانضباطي النتائج المتوقعة دوماً، لأن أفرادا من الضباط أو القادة ينقصهم الزعامة والقدرة علي فرضه والتمسك به.

وينبغي علينا ألا نغفل أن بيزنطة ليست كروما إن الإمبراطورية الرومانية الشرقية كانت إمبراطورية القرون الوسطي. وهي تعكس سمات مماثلة لما لدي جيرانها من تنظيم اجتماعي، وسياسي وتطور اقتصادي مثل كثير من جيرانها. وكانت الزعامة هي الوجه الآخر لعملة الانضباط. وعندما تتوفر للجيوش البيزنطية القيادة الناجحة، فإن ذلك يعني عادة أنهم سيكونون علي أفضل وجه من الانضباط حيث يقاتلون في صفوف متراصة ووفقا للقواعد الأساسية للتكتيك التي توفرها لهم معداتهم وأسلحتهم. ويعني هذا غالبا نجاحهم وانتصارهم. لأن القادة البيزنطيين يراعون القواعد الأساسية المتبعة في حروب الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، وهذا يؤكد أنهم كانوا يحاربون فقط عندما يكونون قادرون علي إحراز النصر، وفي ذات الوقت يقللون من الخسائر البشرية في صفوفهم.

لم يكن ذلك مجرد حبا للبشر، وإن كان العنصر البشري بالتحديد عنصرًا أيديولوجيًا هامًا، لقد كان شعورا هاما يسود دولة محاصرة لذا يحظي الإنسان بالأولوية وأية تغيرات في التوزيع السكاني قد تجلب مشاكل خطيرة للجيوش. غير أنه كان هناك كثير من القادة الحمقى، رجال يدفعهم غرورهم وصلفهم أو جهلهم إلي الإلقاء بحياة جنودهم في المخاطر في هجمات تافهة. وبدا غالباً أن مثل أولئك القادة لم يعطوا اهتمامًا كبيراً للمبادئ الأساسية للإدارة العسكرية والانضباط والتكتيك المترابط والروح القتالية.

للمزيد من الإطلاع :

- **Angold, M., *The Byzantine Empire 1025-1204. A Political History*, London, Longman, 1984.**

- **Bartusis, M.C., *The Late Byzantine Army. Arms and Society, 1204-1453*, Philadelphia, U. Penn. Press, 1992.**

- **Dixon, Karen R. and Southern, Pat, *The Late Roman Army*, London, Routledge, 1996.**

- **Elton, H., *Warfare in Roman Europe, A.D. 350-425*, Oxford, Blackwell, 1996.**

- **Haldon, J.F., *State, Army and Society in Byzantium. Approaches to Military, Social and Administrative History*, Aldershot: Variorum, 1995.**

- **Haldon, J.F., *Warfare, State and Society in the Byzantine World, 565-1204*, London, Routledge, 1999.**

- **Haldon, J.F., *Byzantium. A History*, Stroud, Tempus, 2000.**

- **Haldon, J.F., *The Byzantine Wars*, Stroud. Tempus, 2001.**

- **Kaegi, W.E., Jr., *Byzantine Military Unrest 471-843. An Interpretation,* Amsterdam, Hakkert, 1981.**

- **McGeer, Eric, *Sowing the Dragon's Teeth. Byzantine Warfare in the Tenth Century,* Dumbarton Oaks Studies XXXIII, Washington DC, Dumbarton Oaks, 1995.**

- **Miller, T.S. and Nesbitt, J.S. (eds)., *Peace and War in Byzantium,* Washington DC, CUA, 1995.**

- **Nicolle, D., *Medieval Warfare Source Book, 2. Christian Europe and its Neighbours,* London, Arms & Armour Press, 1996.**

- **Oikonomidès, N. (ed.)., *Byzantium at War,* Athens, National Research Foundation, 1997.**

- **Whittow, M., *The Making of Orthodox Byzantium, 600-1025,* London, MacMillan, 1996.**

ثبت بأسماء أباطرة بيزنطة

مـن ٥٢٧ إلي ١٤٥٣

الإمبراطور	من	إلى
جستنيان الأول	٥٢٧	٥٦٥
جستنيان الثاني	٥٦٥	٥٧٨
طيبريوس الثاني قنسطنطين	٥٧٨	٥٨٢
موريس	٥٨٢	٦٠٢
فوقاس	٦٠٢	٦١٠
هرقل	٧١٠	٦٤١
قنسطنطين الثالث هرقليون	٦٤١	
قنسطنطين الثاني	٦٤١	٦٦٨
قنسطنطين الرابع	٦٨٨	٦٨٥
جستنيان الثاني	٦٨٥	٦٩٥
ليونيتوس	٦٩٥	٦٩٨
طيبيريوس الثالث	٦٩٨	٧٠٥
جستنيان الثاني (استعادة العرش)	٧٠٥	٧١١
فليبيكوس باردانس	٧١١	٧١٣
انستاسيوس الثاني	٧١٣	٧١٥
ثيودوسيوس الثالث	٧١٥	٧١٧
ليو الثالث	٧١٧	٧٤١
قنسطنطين الخامس	٧٤١	٧٧٥
ارتاباسدوس	٧٤١	٧٤٢
ليو الرابع	٧٧٥	٧٨٠
قنسطنطين السادس	٧٨٠	٧٩٧
إيرين	٧٩٧	٨٠٢
نقفور الأول	٨٠٢	٨١١
ستوراكيوس	٨١١	
ميخائيل الأول	٨١١	٨١٣
ليو الخامس	٨١٣	٨١٣

الإمبراطور	من	إلى
ميخائيل الثاني	٨٢٠	٨٢٩
ثيوفيلوس	٨٢٩	٨٤٢
ميخائيل الثالث	٨٤٢	٨٦٧
باسيل الأول	٨٦٧	٨٨٦
ليو السادس	٨٨٦	٩١٢
الكسندر	٩١٢	٩١٣
قنسطنطين السابع	٩١٣	٩٥٩
رومانوس الثاني	٩٥٩	٩٦٣
نقفور فوقاس	٩٦٣	٩٦٩
يوحنا زيمسكيس	٩٦٩	٩٧٦
باسيل الثاني	٩٧٦	١٠٢٥
قنسطنطين الثامن	١٠٢٥	١٠٢٨
رومانوس الثالث أرجيروس	١٠٢٨	١٠٣٤
ميخائيل الرابع بافلاجونيا	١٠٣٤	١٠٤١
ميخائيل الخامس	١٠٤١	١٠٤٢
زوي وثيودورا	١٠٤٢	
قنسطنطين التاسع مونوماخوس	١٢٠٤	١٠٥٥
ثيودورا (ثانية)	١٠٥٥	١٠٥٦
ميخائيل السادس ستراتيوتيكوس	١٠٥٦	١٠٥٧
اسحق الأول كومنين	١٠٥٧	١٠٥٩
قنسطنطين العاشر دوقاس	١٠٥٩	١٠٦٧
إيدوكيا	١٠٦٧	
رومانوس الرابع ديوجينوس	١٠٦٨	١٠٧١
إيدوكيا (ثانية)	١٠٧١	
ميخائيل السابع دوقاس	١٠٧١	١٠٧٨
نقفور الثالث بوتانياتس	١٠٧٨	١٠٨١
الكسيوس الأول كومنينوس	١٠٨١	١١١٨
حنا الثاني كومنينوس	١١١٨	١١٤٣
مانويل الأول كومنينوس	١١٤٣	١١٨٠

الكسيوس الثاني كومنينوس	١١٨٠ - ١١٨٣
اندرونيقوس الأول كومنينوس	١١٨٣ - ١١٨٥
اسحق الثاني	١١٨٥ - ١١٩٥
الكسيوس الثالث أنجيلوس	١١٩٥ - ١٢٠٣
اسحق الثاني (استعادة العرش) والكسيوس الرابع انجيلوس	١٢٠٣ - ١٢٠٤
الكسيوس الخامس مورتزوفلوس	١٢٠٤
قنسطنطين الحادي عشر لاسكاريس	١٢٠٤ - نيقية
ثيودور الأول لاسكاريس	١٢٠٤ - ١٢٢٢نيقية
يوحنا الثالث فتاتزاس	١٢٢٢ - ١٢٥٤نيقية
تيودور الثالث لاسكاريس	١٢٥٤ - ١٢٥٨ نيقية
يوحنا الرابع لاسكاريس	١٢٥٨ - ١٢٦١ نيقية
ميخائيل الثامن باليولوجس	١٢٥٩ - ١٢٨٢ نيقية
اندرونيقوس الثاني باليولوجس	١٢٨٢
ميخائيل التاسع باليولوجس	١٢٤٩ - ١٣٢٠
اندرونيقوس الثالث باليولوجس	١٣٢٨ - ١٣٤١
يوحنا الخامس باليولوجس	١٣٤١ - ١٣٩١
يوحنا السادس كونتاكوزينوس	١٣٤١ - ١٣٥٤
اندرونيقوس الرابع باليولوجس	١٣٧٦ - ١٣٧٩
يوحنا السابع باليولوجس	١٣٩٠
مانويل الثاني باليولوجس	١٣٩١ - ١٤٢٥
يوحنا الثامن باليولوجس	١٤٢٥ - ١٤٤٨
قنسطنطين الحادي عشر (الثاني عشر) باليولوجس	١٤٤٨ - ١٤٥٣

Byzantium survived for 800 years, yet its dominions and power fluctuated dramatically during that time.
John Haldon tells the story from the days when the empire was barely clinging on to survival, to the age when its fabulous wealth attracted Viking mercenaries and Asian nomad warriors to its armies, their very appearance on the field being enough to bring enemies to terms. In 1453 the last emperor of Byzantium, Constantine XII. died fighting on the ramparts, bringing to a romantic end the glorious history of this legendaryempire.

المؤلف



جون هالدون
أستاذ الدراسات البيزنطية والهللينية
جامعة برنستون - الولايات المتحدة الأمريكية

حظي الجيش البيزنطي باهتمام خاص من جانب الإمبراطورية البيزنطية، لما له من أهمية في الحفاظ علي تلك الإمبراطورية في مواجهة أعداء يحيطون بها من كل جانب، بالإضافة إلي ما تعرضت له من غزوات سببتها هجرات الشعوب البربرية من مواطنها الأصلية. وكثيراً ما قام الأباطرة بمحاولات جادة لإصلاح الجيش، والنهوض به ليصبح قادراً في مواجهة التحديات التي فرضت عليه. وإذا كنا نتفق مع الرأي القائل بأن التاريخ البيزنطي يبدأ مع ظهور مدينة القسطنطينية التي أسسها قنسطنطين الأول، فإنه من الضروري أن يكون تتبع نشأة الجيش البيزنطي وتكوينه مقارباً لذلك التاريخ. والمدخل السليم يبدأ من حيث إصلاحات دقلديانوس العسكرية والتي لا يمكن أن نباعد بينها وبين إصلاحات قنسطنطين في المجال نفسه.

المترجم



د. فتحي عبد العزيز محمد
أستاذ مساعد تاريخ العصور الوسطى
جامعة الباحة - المملكة العربية السعودية



دار ناشري للنشر الإلكتروني
رقم التسجيل في المكتبة الوطنية الكويتية: 306/2008
أول دار نشر ومكتبة إلكترونية عربية مجانية للقارئ العربي
www.nashiri.net